عبد الله عبد

مات البنفسج



غ. أدرس

مجموعة قصصية

عبدالله عبد

مات البنفسج

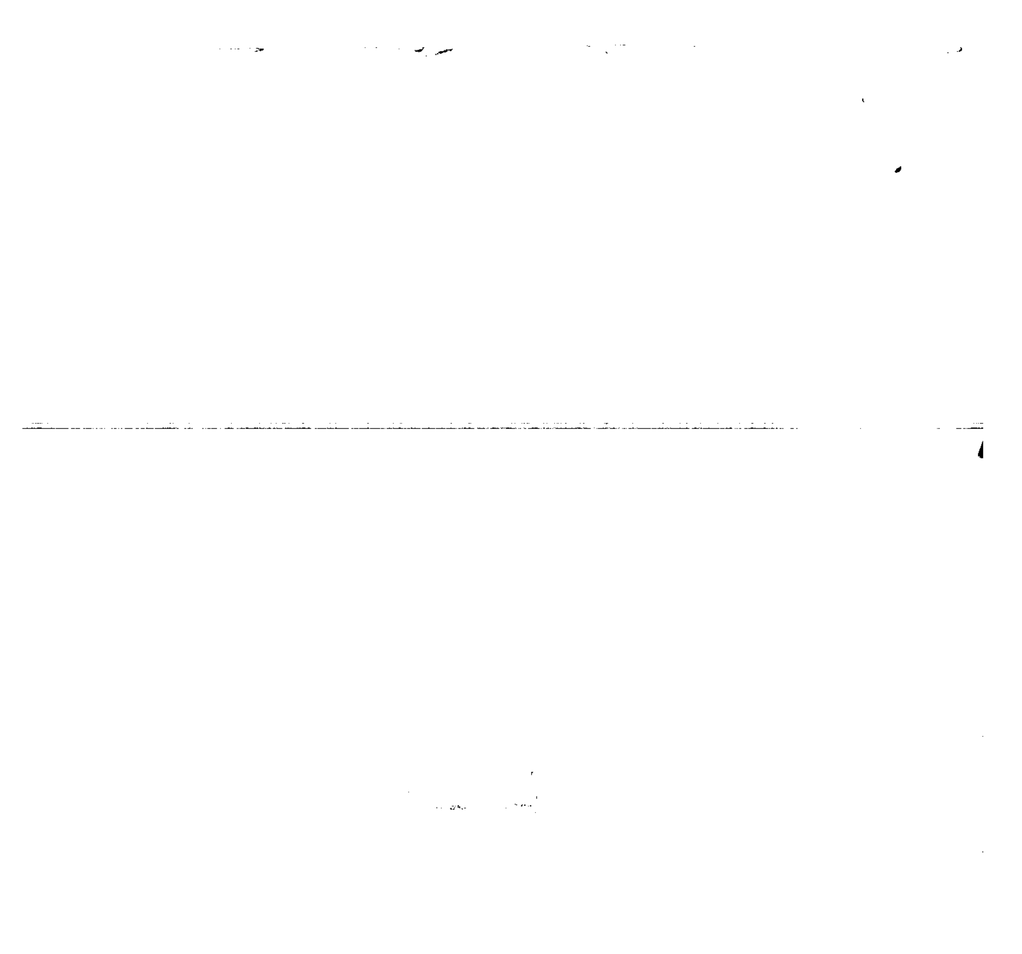
مجموعة قصصية

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

دمشق ١٩٦٩

Damascus
1986

المتشرّد



يبدو لي في كثير من الاحيان أن هـذا ما حدث لأحد الرجال، في أحد البلدان الكبيرة المنثورة على قشرة هذا الكوكب.

فذات يوم مطير بارد، لفظ باب أحد الفنادق الحقيرة التي تنتشر في الأحياء البعيدة، رجلاً يرتدي سروالاً اسود قذراً، وسترة رمادية نصل لونها، وانتشرت فيها بقع الزيت، وينتعل حذاء قديماً مرتوقاً.

ووقف الرجل أمام باب الفندق، وقد دس يديه في جيبي سراوله، وراح من ثم يتطلع بعينيه القلقتين ذات اليمين وذات الشمال. ومر في تلك اللحظة عجوز، فاستوقفه الغريب، وتحركت شفتاه فسأل:

- هل ...؟

وترك كلمة «هل» معلقة في الهواء هنيهة ثم عاد فسأل من جديد:

- كم الوقت ياسيدي؟...

رنا اليه العجوز برهة بفضول، وأخرج ساعة ذات سلسلة

نحاسية صدئة تميل الى الاصفرار من جيب صغير في صدريته ، وقال :
ـ إنها التاسعة .
وأتى بحركة رشيقة من يده الأخرى بمعنى « انتظر » وأضاف :
ـ بل إنها التاسعة والربع إذا أردت الوقت بالضبط .. إن ساعتي تقصر عادة خمس عشرة دقيقة عن ساعات الآخرين ، ولكني اراهنك أنها التاسعة والربع الآن .
وسعل وتمخط باصابعه التي قامت من قبل بالحركة الرشيقة ، ثم مسح ذلك في مؤخرة سرواله .
قال الغريب باقتضاب وقد ظهر على وجهه تعبير بالامتعاض والقرف .
ـ شكراً .
وترك العجوز مزروعاً في مكانه يثرثر . وما أن ابتعد عنه ثلاث أو أربع خطوات حتى سمعه يقذفه بهذه الكلمات « قلة ذوق .. أنا لم انته من كلامي بعد ، حقاً لقد نسي الناس في هذه الأيام جميع الفضائل حتى فضيلة الاصغاء » .
كان الغريب يسير ببطء مطرقاً ، أشبه بطفل استغرقه التفكير في ذنب . وما لبث أن ردد بينه وبين نفسه :
ـ يا له من عجوز ثرثار .. إن له وجه ضفدع قذر .. ها إنه يتكلم عن الفضائل .

كانت السماء تمطر مطراً خفيفاً ناعماً . وكانت حفر الماء التي خلفتها امطار الليلة الفائتة مبعثرة في الطريق فكان الغريب يتحاشاها بصمت وحذر اخرسين . وكانت يداه المقرورتان لاتزالان في جيبيه، وكان شعره رطباً ، وكذلك وجهه ، ولحيته النامية . همس الغريب وقد زوى ما بين حاجبيه « أية مدينة ملعونة هذه ! لم ينقطع المطر فيها خلال ايام . وأغلب ظني انني سألقى حتفي جوعاً قبل أن أحصل على عمل شريف .. يا الله ! يخيـــل اليّ أن البرد قد أكل رؤوس أصابعي » .

ونظر الى حذائه . كان الماء قد تسرب اليه . وكان نشيش رتيب ورخص يتصاعد منه كلما لامست قدمه الارض ، ثم تنحدر قطرات متلاحقة من جوانب الحذاء ، وتطير فقاعه أو فقاعتان ، كأنما انفجر بما ضاق به وكان هذا يحدث باستمرار ، مما بدا وكأن الغريب يسير في موكب من موسيقى نشاز متساوقة الايقاع مع كل خطوة . ولم يمكث طويلا حتى سحب يديه واخذ ينفخ فيهما . قال بعد أن بعث في يديه بعض الدفء : « لقد طفت الجهة الغربية والشمالية من المدينة ، وعليّ الآن أن ابحث في الجهة الشرقيـــة والجنوبية » .وأضاف بعد فترة قصيرة « أية أيام عصيبة !!.. يا الهي ان جميع المدن متشابهة الى حد مخيف » ..

توقف المطر عن الهطول ، واندفعت موجة من الهواء البارد صفعت وجهه بقسوة ، فانكمش على نفسه اكثر من ذي قبل ،

وتكوم ظهره ، وغاصت يداه في أعمـــاق جيبيه . وكانت شفتاه زرقاوين تميلان قليلا الى السواد وقمة انفه حمراء لامعة ، وعيناه التعبتان تنتقلان ابداً من مكان الى آخر متفحصتين .

انحدر فجأة ناحية اليمين وخطا في شارع ذي اعمال مختلفة. وكانت هناك في زاوية ما اكوام من جذوع أشجار ضخمة ، وأصوات مناشر تقوم بتقطيع الخشب وصقله ، تشق الفضاء ثاقبة حادة فتخدش السمع دون رحمة . ولج الغريب باب مصنع الخشب بحذر عظيم ، تماماً كما يفعل الهر عند بوابة أحـــد المطابخ متأنياً متفرساً في كل ما يحيط به . وسار في درب ضيقة بين جبلين من الاشجار المقطوعة. ثم تسلل الى قاعة فسيحة نظمت فيها المناشر بشكل رائع ...

ونفذت الى انفه رائحة الخشب القوية ، وتطايرت النشارة في كل مكان فاستقرت على العمال وكست كل شيء وأصبح أزيز المناشر الحاد أكثر ازعاجاً .

اجال الغريب عينيه في هذا العالم الصغير الذي يشبه خلية من النحل الآدمي ، فميز رجلا قصير القامة ممتلىء الجسم يتنقل بين الآلات باستمرار ، ثم ينحني على رجاله ويلقي اليهـــم بملاحظاته وأوامره . قال في نفسه « لاشك انه المراقب المسؤول »، واقترب منه . صاح متهيباً وبصوت راعش .

ـ سيدي !

فالتفت اليـــه الرجل القصير ، ورد بلهجة جافة لا أثر فيها للحياة .

ـ نعم ؟

وخيل للغريب أن هذه الـ « نعم » صدرت عن آلة من تلك الآلات القاطعة . وغاصت عيناه بسحابة رمادية ، فأسرع يقول وقد بدأ ينتابه نوع من الخور والخوف الذي يلازم الغريب عادة .

ـ هل ..؟ هل أجد لديك عملا يا سيدي ؟..

ـ يا الهي ماذا حل بالعالم ؟.. أليس في هـــذا البلد سوى مصنعي ؟ إنك الواحد والعشرون الذين جاؤوا حتى الآن يسألونني عملًا .. كلا ليس لدي أي عمل .

وتدحرج بين الآلات الصاخبة ، مستأنفاً أوامره وملاحظاته . لم يجد الغريب عند ذلك بدأ من الانسحاب . وخرج من البوابة وأصوات المناشر لا تزال تطن في رأسه . همس مباشرة حين أصبح في الطريق « ليتني املك سيجارة . ان رأسي فارغ كرأس دمية .. ترى متى دخنت آخر سيجارة ؟.. » فجاءه صوت من داخله يقول:

ـ كان ذلك البارحة عند الظهر بالضبط ، حينما انفقت آخر قطعة نقدية كانت لديك من عمل نصف نهار في معمل للبلاط .

ومر به رجل استقرت سيجارة في الزاوية اليسرى لشفتيه، يحرقها باستهتار . قال الغريب « ما اسخفه مدخناً ! إنه يبدد دخانها عبثاً . ولكن السعادة تبدو على قسمات وجهه ، ولا شك إنه يملك

مقداراً محترماً من السجاير » ونفخ صدره ، وتنهـــد وسار بمحاذاة الحائط كـكلب خرج من معركة مثخنا بالجراح ...

وقف الغريب أمام حانوت حدادة . كان هناك رجلان أحدهما يمسك قطعة حديد حمراء ، بملقط طويل العنق ، والثاني يطرق عليها . كان الأول نظيف الوجه نسبياً ، اذا قورن برفيقه ، بينما كان وجه الآخر أشبه بقطعة فحم تحمل سمات انسان وعلاوة على ذلك ، كانت انعكاسات النار التي يزكي اوارها كير يديره رأس صبي نواس ، تكسبها صفة غير آدمية . قال الرجل ذو الوجه الفحمي ، وقد توقف لحظة ليأخذ جرعة ماء .

ـ ايه ..؟ ماهي مؤهلاتك أيها الغريب ؟ هل تستطيع مثلاً أن تطرق الحديد بقوة ؟

فأجاب الغريب وقد لمعت عيناه قليلا .

ـ نعم .. نعم أستطيع أن أفعل . فقد عملت حمالا في المرافىء، وبواباً في الفنادق، وطباخاً وخادماً في المطاعم. لقد اشتغلت قاطعاً للحجارة في المقالع وحفاراً للقبور . رممت السكك ، وشاركت في فتح الطرق ، وساهمت في الدفاع عن الوطن .

فقال صاحب مصنع الحدادة ساخرا ، وقد غمز زميله .

ـ عظيم ،واقسم أنك إنسان نادر المثال .

وتصنع التفكير برهة من الزمن ، ثم أضاف بخبث .

ـ عد إلي بعد شهر أو شهرين ، فقد أجد لك مكاناً شاغراً.

فدار الغريب على نفسه وتابع سيره . ومن بعيد شقت الفضاء سلسلة متلاحقة من الرعد المخنوق ، وضرب الهواء في أعقاب الغيوم ، فزمجرت كقطيع من النيران هائج .

رفع الغريب يده الى وجهه ، وهرش لحيته الكثيفة ، وعطف رأسه قليلا على كتفه الأيمن ودمدم بحزن « بعد شهر أو شهرين .. بعد شهر أو شهرين .. أي مستقبل زاهر ينتظرني .. ان معدتي لن تنتظر حتى ذلك الحين . اذن لأجرب من جديد » . ومضى يطوي زقاقاً تلو زقاق ، وطريقاً بعد طريق ، حتى انتهى به المطاف الى شارع ممتاز فدخل أول مخزن صادفه . قال مباشرة .

ـ أي سيدي ! ان لدي خبرة بجميع أنواع الحساب ، ومختلف دفاتر التجار والاضبارات وزيادة على ذلك ، فأنا أضرب على الآلة الكاتبة بمهارة فائقة . واذا لم أجد لديك عملاً من هذا الطراز فيمكنك أن تعتمد علي في كنس المخزن ، ونفض الغبار عن أوانيك وسلعك وتحفك النادرة ، ثم أنتصب بعد ذلك على باب مخزنك كالتمثال استقبل الزبائن واطرد عن واجهاتك البلورية الفخمة المتطفلين والأشقياء .

فرد صاحب المخزن قائلاً بلهجة آلية دون أن يرفع عينيه عن دفتر ضخم كان أمامه :

ـ آسف لدي الكثير من العمال والموظفين .

قال الغريب وقد أخذ سبيله الى الخارج :

ـ يا للشيطان . لقدسُدت في وجهي السبل ، ولكن لا بأس ، ينبغي أن أحاول من جديد . ان ذلك لن يضيرني في شيء .

وما أن أقبل المساء ، حتى كان قد عرج على عشرين مطعماً يسأل أصحابها عملاً ، وثلاثين فندقاً ، وخمسة وأربعين حانوتاً للأحذية ، ومئة مكان ذات أعمال مختلفة ، لكنه لم ينل أية فائدة . ومع ذلك لم يكن اليأس قد نال منه ، غير أنه شعر بصورة مفاجئة بحاجته الى انسان ما .

وهكذا استوقف الغريب أول مار به ، كما يفعل الغريق عندما يتشبث بأي شيء يصادفه . سأله :

ـ كم الساعة أيها الأخ ؟ ..

وتمنى في سره أن يقول له الرجل ان ساعتي تشير الى « كذا » وأن يفاجئه بحركة رشيقة مستدركا « ولكنها تقصّر عادة خمس عشرة دقيقة عن ساعات الآخرين » ، وأن يسعل ويتمخط ويثرثر ويحكي طويلا عن أشياء كثيرة . غير أن العابر قطع تأملاته .

ـ إنها الخامسة .

وهم أن يستأنف سيره . فسارع الغريب يقول وهو يتكلف النظر الى الجو .

ـ ان الطقس بارد . ويخشى حصول أعاصير . أليس كذلك أيها الأخ ؟ ..

أجاب الآخر وهو ينظر اليه بريبة :

ـ نعم ان الجو بارد تماماً ، والريح قوية، ولا يستبعد حدوث اعصار هائل . ان ثيابك رقيقة أيها الغريب ويجب أن تدفىء نفسك أكثر .

ثم تركه ومضى .

ـ كم الساعة أيها الأخ ؟..

ـ الخامسة وثلاث دقائق

ـ أواثق أنت من ذلك ؟

ـ كل الثقة

ـ ان الجو بارد و ...

ـ نعم إنه كذلك

ورعدت السماء من جديد ، وأظلمت الدنيا .

ـ هل تعرف الوقت يا أخي ؟..

ـ إنها الخامسة والنصف .

فقال الغريب وقد بدأ يخنقه فيض من الدموع :

ـ أيها المواطن الطيب . ان الـ . جـ . و

ولكن الرجل مضى مسرعاً . وظل المتشرد وحيداً وأحس بأنه جائع وتعب وبائس وبردان ، ورأسه فارغ كالطبل ، وأنه لاشيء في هذا العالم المجنون .

وتلفت لآخر مرة حوله ، ثم انطوى على نفسه وراح يقص عليها قصة حياته .

الشريطة الخضراء

كنا في الصف التاسع ، وكانت حنة تجلس أمامي مباشرة. كان شعرها غزيراً أسود ـ كجناح غراب فتي ـ وخصلاته الحلزونية المربوطة بشريط رفيع من القطيفة الرمادية ـ أشبه بجزمة نوابض جديدة ـ وكثيراً ما اغتنمت فرصة انشغال المدرّسة ـ لان ترتيب مقعدي الأخير ـ ولففت خصلة منه حول اصبعي او جعلت قلمي ينفذ خلال فراغ نوابضه اللطيفة على سبيل المداعبة ، وأنا مطمئن من ناحية حنة ... ولكنها في كل الاماسي ونحن في طريق عودتنا الى البيت كانت تعاتبني من أجل ذلك فأرد عليهـــا عندئذ متخابثاً ببعض مقاطع كنا قد حفظناها من نشيد الانشاد :

« شعرك كقطيع معز رابض على جبل جلعاد ،

وفمك حلو ،

خدك كفلقة رمانة تحت نقابك ،

ها أنت جميلة يا حبيبتي ، ها أنت جميلة عيناك حمامتان ،

كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيبتي بين البنات » .

فلا تلبث هي الاخرى أن تردد باسمة وبشيء من الخجل :

« كالتفاح بين شجر الوعر ، كذلك حبيبي بين البنين ،
تحت ظله اشتهيت ان أجلس وثمرته حلوة لحلقي » .

وفي كل مرة ما تكاد تصل الى المقطعين التاليين حتى يتضرج خداها بلون مزقة سحاب قبيل الشروق في يوم خريفي رائق .

« أسندوني بأقراص الزبيب ،
انعشوني بالتفاح ،
فاني مريضة حباً ،
شماله تحت رأسي ،
ويمينه تعانقني » .

ولاحظت في الايام الأخيرة ان حنة قـــد صارت أكثر شروداً وصمتاً ،فحزنت لذلك واقلعت عن مداعبتي لشعرها . لقد أدركت ان ثمة ما يشغل بالها ويؤلمها . كان يمضي يوم واثنان وثلاثة وهي في حالة نفسية جيدة . ولكن فجأة وعلى غير انتظار كانت الضحكة تذوب رويداً رويداً على فمها ويخيم عليها كآبة قاتمة . لم أستطع ان احزر .

ماذا يقلق هذا الرأس الصغير ذا النوابض ، لم أستطع معرفة ذلك رغم أني مطلع تماماً على أحوالها العائلية . ولم أشأ ان أسألها .. انني أخشى ان أجرح احساسها بتدخلي - وقد حدث ذلك مرة - وهـذا ما لا استطيـع أن أطيقه ثانية .

فوجىء الحي ذات يوم باختفاء (مريم) - وقد حدث هذا

قبل سبعة أشهر - فقلت . « أين ذهبت أختك يا حنة ؟ » . وصمتت طويلًا جداً وانقبض وجهها وعضت على زاوية شفتها العليـــا وهي تقول : « لماذا تسأل عن ذلك . انكم جميعاً تعرفون . متى تدعونا وشأننا ؟ .. يا الله » وفرت الى البيت - كأرنب مذعور - وعيناها تسبحان في فيض من الدموع . أنا لا أريد أن أعيد التجربة مع حنة .. كانت حنة فيما مضى فتاة مدللة ، ولكن بعد ان مات أبوها لم تعد كذلك ، ولم ينقطع حبها للجبن الهولندي الأحمر بموته .

كانت تردد لي دائمـاً وهي تقضم قطعات كبيرة منه « لقد جلب أبي كرة حمراء أخرى . انه ابتاعها من أجلي .. انني أموت اذا لم آكل منه كل يوم » .

كان أبوها يعمل سائق شاحنة ضخمة . ويتقاضى أجراً طيباً من أجل ذلك . لقـد أراد ان يصطنع مستقبلًا زاهراً لابنته . ومما قاله لامرأته وهو يلفظ أنفاسه بسبب حادث . « يا هيلانة أبقي عزيزتنا حنة المدرسة . أنا لا أريد ان تصبح جاهلة مثلنا » وبكت هيلانة كثيراً وهي تعد زوجهـــا بتنفيذ وصيته . وهكذا راحت الأرملة والأخت مريم بعد ذلك تجاهدان من أجل الصبية ، وهكذا لم تنقطع حنة عن قضم الجبن الأحمر .

* * *

طفق أهل الحي يتحدثون بالسوء عن هذه الاسرة ومنعتني أمي من الاحتكاك بها . وكانت تنعتهم دائماً « بالقمامة » . وابتدأت أكره سكان الحارة لأنهم يتهامسون عن عائلة حنة بكلمات مخجلة .. انا لم أشعر في يوم من الأيام ان شيئاً غير عادي يحدث في البيت ذي الغرفتين والمطبخ المنخفض .

وحينما اختفت (مريم) اضطربت ميزانية الاسرة التي أصبحت تتألف من الأم والابنة . وانقطعت الفتاة فترة من الزمن عن التهام الجبن الهولندي وصارت تخجل من صدرية السنة الماضية التي أصبحت أكثر قصراً ، ومن حذائها الشاحب الذي انطفأ بريقه . كنت ألمح ذلك في حمرة خديها عندما تنهض أحياناً الى السبورة . وفي اضطراب حركاتها حين تقف قبالة زملاء وزميلات الصف (لتلقي) درسها . ولكم أخشى أن يأتي يوم تصبح فيه الصدرية غير صالحة للاستعمال . لقد حدث منذ عشرين يوماً أن كنا عائدين الى البيت ، وفجأة ارتطمت رجل رفيقتي بحجر في الطريق فانزلق الحذاء من قدمها وتخلف خطوتين فاضطرت ان ترجع المسافة لتستعيده ، ولشد ما دهشت عندما وجدت جوربها لا يحوي على (سافل) . آه ما كان أعظم ألمها في تلك اللحظة وما أتعس منظرها ، وللحال تظاهرت بعدم ملاحظتي للامر وظللنا صامتين طوال الطريق .

أنا أتساءل : هل ستمتد بها الشجاعة الى البيت وتبكي

قبل سبعة أشهر ـ فقلت . « أين ذهبت أختك يا حنة ؟ » . وصمتت طويلًا جداً وانقبض وجهها وعضت على زاوية شفتها العليـــا وهي تقول : « لماذا تسأل عن ذلك . انكم جميعاً تعرفون . متى تدعونا وشأننا ؟ . . يا الله » وفرت الى البيت ـ كأرنب مذعور ـ وعيناها تسبحان في فيض من الدموع . أنا لا أريد أن أعيد التجربة مع حنة . . كانت حنة فيما مضى فتاة مدللة ، ولكن بعد ان مات أبوها لم تعد كذلك ، ولم ينقطع حبها للجبن الهولندي الأحمر بموته .

كانت تردد لي دائمـاً وهي تقضم قطعات كبيرة منه « لقد جلب أبي كرة حمراء أخرى . انه ابتاعها من أجلي . . انني أموت اذا لم آكل منه كل يوم » .

كان أبوها يعمل سائق شاحنة ضخمة . ويتقاضى أجراً طيباً من أجل ذلك . لقـد أراد ان يصطنع مستقبلًا زاهراً لابنته . ومما قاله لامرأته وهو يلفظ أنفاسه بسبب حادث . « يا هيلانة أبقي عزيزتنا حنة المدرسة . أنا لا أريد ان تصبح جاهلة مثلنا » وبكت هيلانة كثيراً وهي تعد زوجهـــا بتنفيذ وصيته . وهكذا راحت الأرملة والأخت مريم بعد ذلك تجاهدان من أجل الصبية ، وهكذا لم تنقطع حنة عن قضم الجبن الأحمر .

* * *

طفق أهل الحي يتحدثون بالسوء عن هذه الاسرة ومنعتني أمي من الاحتكاك بها . وكانت تنعتهم دائماً « بالقمامة » . وابتدأت أكره سكان الحارة لأنهم يتهامسون عن عائلة حنة بكلمات مخجلة .. انا لم أشعر في يوم من الأيام ان شيئاً غير عادي يحدث في البيت ذي الغرفتين والمطبخ المنخفض .

وحينما اختفت (مريم) اضطربت ميزانية الاسرة التي أصبحت تتألف من الأم والابنة . وانقطعت الفتاة فترة من الزمن عن التهام الجبن الهولندي وصارت تخجل من صدرية السنة الماضية التي أصبحت أكثر قصراً ، ومن حذائها الشاحب الذي انطفأ بريقه . كنت ألمح ذلك في حمرة خديها عندما تنهض أحياناً الى السبورة . وفي اضطراب حركاتها حين تقف قبالة زملاء وزميلات الصف (لتلقي) درسها . ولكم أخشى أن يأتي يوم تصبح فيه الصدرية غير صالحة للاستعمال . لقد حدث منذ عشرين يوماً أن كنا عائدين الى البيت ، وفجأة ارتطمت رجل رفيقتي بحجر في الطريق فانزلق الحذاء من قدمها وتخلف خطوتين فاضطرت ان ترجع المسافة لتستعيده ، ولشد ما دهشت عندما وجدت جوربها لا يحوي على (سافل) . آه ما كان أعظم ألمها في تلك اللحظة وما أتعس منظرها ، وللحال تظاهرت بعدم ملاحظتي للامر وظللنا صامتين طوال الطريق .

أنا أتساءل : هل ستمتد بها الشجاعة الى البيت وتبكي

هناك ، أم يهن عزمها فلا تستطيع لدموعها كبتاً في الطريق العام . واني لعلى يقين ان هذا الرأس الصغير الذي يسير بجانبي كان يبحث من خلال ألف فكرة يلفها الضباب عن كلمة مناسبة تحسم الموقف كي تستشف من ورائها هل رأيت ما رأيت ؟.. وفي الساعة السادسة ليلاً ذهبت الى بيت حنة وأنا مشفق من رؤيتها اذ كان لا يزال منظرها البائس عالقاً في ذهني ، وكنت قد نسيت معها منذ النهار كتاب الجغرافيا ـ فرحت أطلبه . لم أجدها هناك فقالت لي أمها: « لقد ذهبت الى بيت خالتها منذ نصف ساعة ولما ترجع . ان شئت أبحث عن الكتاب في الغرفة الأخرى » .

ثم تركتني ومضت الى المطبخ . وبينما كنت أقلب الكتب في صندوق كتبها ارتطمت يدي بلفة طرية وحين فتحتها «يا الهي». كان فيها خمس قطع من الجبن الأحمر ذات شكل هلالي متشابه ، وتزن الواحدة منها مئة غرام تقريباً . فقلت في نفسي « لعلها قد خبأتها لأيام الضيق . انهـــا حكيمة كالنمل تعرف كيف تتدبر الأمور » . ولم أشك في ان أمها قد جلبتها من بيت من كانت تعمل لديهم طباخة . وقلت مرة أخرى وأنا حزين حتى الموت .

« انها حملت هذه القطع يوماً بعد يوم وجاهدت في سبيل الحصول عليها ما جاهدت فأية حياة شقية هذه !.. » . وفي اليوم التالي جاءت حنة الى المدرسة . كان في قدميهـا جورب جديد ذو لون بنفسجي .

* * *

وذات أمسية ماطرة ، وهي من أحب الأماسي الى قلبي، انتحيت ركناً غير بعيد عن باب المدرسة وطفقت أرقب مجيء رفيقتي .

كانت الزميلات قد تخلفن من أجـــل بعض التعليمات استعداداً لحفلة الغـد ، حيث كان « ر . . . » . سيزور المدرسة . وكان قد مضى علي هناك تحت ممطري سبع دقائق . وحملت ثقل جسمي الى الرجل اليمنى وما هي الا لحظات أخرى حتى جاءت حنة مهرولة فرفعت لها الطرف الثاني من الممطر فاندست بجانبي ونقلت محفظتها الجلدية الى الجانب الآخر كي نسير على نحو أفضل .

ان أنفاسها الدافئة ، وهي قريبة مني وبعض خصلات شعرها الثعبانية تمس عنقي ، تشعرني بنشوة لاحد لها ، ويخيل الي في لحظة من اللحظات أن أجنحة صغيرة لطيفة تنبت على جنبي وهي تسير معي فأستشعر خفة غريبة ، وأحس انني أطير بلطف في عالم من المروج الخضر والسماء الوردية الزاهية والافق الساجي الملون . قلت وأنا أنظر الى شامة على صفحة خدها الايسر .

– لقد تأخرت ياحنه

فردت في بطء

– انها (وجه الشيطان) .

ووجه الشيطان هو لقب نطلقه على المدرّسة (سارة) ،

وهي عانس متصابية تحب أن تحدث الاشيـاء دائماً على الوجه الأكمل .

– اوه هذه الخرفه . ماذا لديها من جديد ؟

فأجابت متنهدة من خلال كآبتها .

– لاشيء .. انك تعلم : غدا كن نظيفـات ، ادهن أحذيتكن ، وليكن شعركن مربوطاً بشرائط خضر .. لاتثرثرن في حضرة الزائر ، ولتكن جواربكن بيضاء .

– شريطة خضراء وجورب أبيض . ياالهي . الا يصح ان تكون زرقاء او حمراء او سوداء ؟ وما نفع جورب أبيض في يوم ماطر ؟.

– كلا لا يصح .. لا يصح .

قالت ذلك بأسف حالم . كانت حنه لاتملك سوى شريطة رمادية وأخرى سوداء تكاد ان تكون بالية . وحدثت نفسي قائلا وأنا أعرف ان ظروف أمها المالية لاتسمح بشراء شريطة خضراء وجورب أبيض « سوف لاتحضر حفلة الغد لأنهـا لاتملك شريطة جديدة وجوربا أبيض » ومشينا عشرات الامتار صامتين والمطر ينقر نقراً خفيفاً ورتيباً فوق رأسينا على الممطر ، ومرت سيارة مسرعة تزمر على نحو حـاد وكان عن يسارنا دار للسينما . ونظرت من جديد الى شامتها وذقنهـا وشريطتها الرمادية والى

تعابين شعرها الحالكة . وسألت وأنا ما أزال أنظر في الجانب الايسر من وجهها .

ـ هل ستحضرين حفلة الغد ؟

وابطأت نصف خطوة وأدارت رأسها نحوي وبدت لي وقد صارت أكثر حولا من أي وقت مضى ، وانها انتزعت من شرودها انتزاعاً ـ حدث ذلك في ثانية من الزمن ـ ثم قالت وهي لما تتخلص بعد تماماً من شرودها .

ـ لست أدري ... قد أحضرها . لكن ليس هذا أكيدا، ليس أكيدا حتما .

وسرنا بضع خطوات أخرى . فقلت وقد عزمت على أمر ما .

ـ اذا حضرت، حفلة الغد سنتناول غداءنا بعد ذلك عند العمة (أم سمعان) وندخل السينما . سوف أدبر الامر وأجلب بعض الجبن الاحمر ومربى العنب .

ونظرت اليها مرة أخرى كي أرى وقع كلماتي لديها . كان قد مضى علينا اسبوعان لم نذهب خلالهما الى بيت العمة ، اذ من عادتنا في الايام الماطرة ان نمضي الى هناك مصطحبين طعامنا لأن حارتنا تبعد خمسة وعشرين دقيقة عن قلب المدينة . وهكذا كان يصعب علينا العودة أحيانا الى البيت ظهرا . قالت :

ـ احقا ؟ اذن الى الغد.

ولاحظت أنها ظلت على شرودها وهي تنطق بهذه العبارة المقتضبة ، ولم يدفعها الى قول ذلك الا مجاملتها لي ، فهي تتجنب اغضابي دائماً . قلت في نفسي « هل أقول لها ؟ » . ودفعت برجلي حصاة كانت أمامي ، فابتعدت مايقرب من مترين ونصف ثم دارت حول نفسها ، وعندما انتهيت اليها ثانية دفعتها من جديد . من المؤكد ان حنه في تلك اللحظة كانت تفكر في الغد ، وفي الطريقة التي تمكنها من الحصول على شريطة خضراء وجورب أبيض ، وتلعن في سرها المدرسة (سارة) . وحدثت نفسي مرة أخرى وأنا أرفع طرف الممطر الذي انحسر قليلا فوق رأسي « ليتني واثق لاخبرها » . كانت حزينة مثل طفلة مصفوعة ومجردة من لعبتها . ان أي شيء مؤثر في العالم يمكن احتماله الا منظر صبية محرومة لاتستطيع ان تجاري زميلاتها في مايفعلن . وهطل المطر أكثر فأكثر ، فقالت رفيقتي وقد أخذت شفتاها تغشاهما زرقة : « يستحسن ان نتوقف قليلا » . ولطونا تحت احدى أشجار الخرنوب المزروعة على جانبي الطريق التي أقفرت من السابلة الا من عابر جرى بين الفينة والفينة متنقلا من طوار الى آخر ركضا .

كنا في وحدتنا والمطر يتساقط من حولنا مثل عصفورين منبوذين . وظللنا نرقب بصمت حزين حبات المطر وهي تتكسر على الارض الصلدة ، فتتجمع لتشكل سيلا تافهاً قذراً تسبح على صفحته اوراق الخرنوب المتساقطة ، وقشور البرتقال وروث الدواب .

كان المطر قد توقف منذ ساعة ، حينما اندفعت الى مـكان ما في الظلام ووقفت حيال بيت حنة تماما . وطفقت ارسل من بين شفتي صفيراً على نحو خاص . . كان الحي هادئاً والظلمة تخيم عليه الا من مصباح كهربائي يتربص كعين شاهدة على فم زقاق ضيق يبعد عن ركني ثلاثين متراً ، ونوراً آخر ينبعث من حانوت مقابـــل لبيت جـارتي ، وكانت المكانس وسلة البيض الحديدية والشموع ورزمات الحبال وربطات القنب وشتى أنواع السلع المعلقة تلقي ظلالاً سوداء على الجدار المقابل ، وصفرت مرة اخرى . كنت أحمل في يدي لفة ورق اقتطعتها من صحيفة قديمة وطويتها على شريطة خضراء وجورب ابيض . وكان الجو دافئـاً وارض الحارة المعبدة مؤخراً تلمع قليلًا بتأثير مياه الامطار المتخلفة . وعـبر صبي حافي القدمين الساحة ركضـاً ، وارتفع من ورائي صراخ طفل ، وصفرت للمرة الثالثة . كان النور مطفأً في البيت ذي الغرفتين والمطبخ المنخفض .

رددت « عمـا قليل تخرج حنة واقتطف من شفتيها قبـلة . وستكون فرحة بالشريطة الخضراء ، والجورب الابيض مثل فرخ دجاج يعثر على أول حبة قمح في حياته . وستحضر حفلة الغد ونذهب الى بيت العمة وندخـل السينما » . وما كدت اصفر للمرة الرابعة حتى جمدت الصفرة على شفتي . لقد خرجت حنة من دكان الحانوتي ، وفي يدها شريطة خضراء وجورب ابيض وشيء آخر لم أمـــيزه . كانت قلقة كمجرم مبتدىء لم يتدرب كفاية . وما كادت تصل الى

تبة بيتها حتى استوقفها الحانوتي ولحق بها. ووقفت في الضوء وشفتاها مراوان كثمرتي توت ناضجتين . لم أرها في حياتي أجمل منهـا في لك اللحظة . واقترب الرجل ونطق عبارة لم أفهم مضمونها . كان ي أذني طنين يشبه طنين النحل . واعتصر نهدها الصغير بين أصابعه نفرت منه بلباقة . وسقط الضوء عليها أكثر ، فبرز شيء في يدهـا لاخرى « يا الله » انه قطعة جبن تزن مئـة غرام وذات شكل للالي . . . ثم دخلت البيت وعاد الحانوتي وتراقصت الظـلال على لجدار المقابل .

وحينما يمت شطر البيت كان شيء كروي فـظ يقف في حلقي ويعرقل تنفسي ، ويحتجز الدموع عن عيني . . وهبت نسمة غربية دافئة . بعثرت خصلة شعر على جبهتي .

غداً وغـداً آخر وكل الايام التالية... كيف يمكن تصور هذا؟ فتاة عمرها أربعة عشر عاماً ، تجلس أمامي مباشرة، وشعرها مربوط بشريطة خضراء . . . وفي كل الاماسي كنت أعود الى الجهة لشمالية من المدينـة مارا ببيت ذي غرفتين ومطبخ منخفض تحت مطري .... وحدي .

علقٌ

ما ان وطأت عائشة عتبة البيت حتى تخلصت من الصرة التي تحملها ، ثم شرعت تتخفف من ثياب السوق، فاطرحت ملاءتها جانباً ونفخت :

ــ اف ! يا له من يوم رهيب

وتبعت عائشة على الاثر امرأة قصيرة في ظهرها انحناء . يميزها شعر رمادي لا يتناسب مع سنها فيظهرها علاوة على ملامحها المتعبة اكبر مما هي في الواقع . سألت :

ــ اين كنت ؟

وادارت عائشة لسانها في فمها قبل ان ترد

ــ في السوق

ــ يا ربي كم ارغي وازبد ؟! لقد ..

وقطع حديثها فتى اقبل من اقصى الغرفة يقضم قطعة خبز ملفوفة على ادام

ــ انه عجوز خرف

واكتفت المرأة بالنظر اليه ، فرفع كتفيه فعل طفل حرد وازدرد لقمة اخرى

ـ لماذا لا يتركها وشأنها ؟! انها لم تعد صغيرة ..

ـ اسكت بحق النبي .. انه ابوكم على كل حال

ورنت عائشة الى اخيها بعينين فيهما امتنان ومحبة . كان اخوها فارع العود ، ذهبي البشرة كثمرة مشمش فاخرة ، وكان خليقاً بها ان تحبه اكثر لولا تلك الحكايات التي رويت عنه . واعادت عائشة النظر اليه رجاة ان تجد في مظهره عكس ما يشاع عنه فتفحصت متمهلة :

ياقته المقلوبة ، ذراعيه المحسورتين عالياً ، ثم خصره المحصور بنطاق معدني لماع عريض ، غير ان بصرها ارتد حاسراً . كان منظره في الواقع لا يبعث على الارتياح .

وتقلقلت الام في وقفتها ، ثم قالت بجرس ارق من ذي قبل ، بينما انحدرت عيناها على الصرة :

ـ اين كنت يا عائشة ؟

وخف الفتى يجيب نيابة عن اخته في الوقت الذي كان يفكر في ذات نفسه « في هذه الصرة ما يخصني » :

ـ قالت لك انها كانت في السوق . وفكر ثانية « اليوم نهاية الشهر ، اخمن انها ابتاعت لي قميصاً كما وعدتني » . والواقع لم تعده

بشيء ، وانما حملها على وعده . كان ذلك منذ يومين حين كلفته قضاء حاجة لها . سألت عائشة :

ـ اين اخي سلامو ؟

وسلامو هو اصيص عائشة المورق ، في بيت لاتوجد فيه زهور اخرى . فقالت الام :

ـ لست ادري . لعله في مكان ما من الدار . . ربما يلعب مع اولاد الجيران .

وطوت عائشة جسمها لتخلع ثوبها الخارجي ، في حين كانت نظرات امها تزداد اصراراً على الربطة عسى ان تنفد الى داخلها وهي تتساءل « ترى من جلبته ؟ » . وقذفت عائشة فستانها الى حبل مثقل بالثياب ، مربوط الى جدارين متجاورين ، وقد طافت بخاطرها خزانة ملابس رأتها مرة في سوق السقط وفكرت « ماثمنها ؟ » .

واهتز الحبل تحت ثقل الثوب ، فطارت ثلاث ذبابات ، عادت اثنتان الى نفس موضعها واما الاخرى فحومت قليلا ثم حطت على الجسم الجديد وراحت ترعى فيه . وسادت فترة صمت قصيرة لم يسمع خلالها سوى تردد انفاس عائشة وطنين الذباب المهوم في جو الغرفة ثم ازدراد الطعام الاخرس .

ـ ماذا تأكل يا رضوان ؟

ولم تنتظر عائشة الجواب بل اردفت فوراً وهي تتحسس

خدها ثم عنقها . —

ماهذا الحر ؟ انه لايطاق .

فكرر الفتى :

— نعم انه لايطاق ؟ سوف امتح لك بعض الماء البارد من البئر .

وقالت الام :

— لقد هيأت لك ماء ساخناً .. لقد اشعلت الموقدوحضرت لك بعض الماء الساخن . قلت في نفسي « لسوف تأتي عائشة من المصنع تعبة هل أنت تعبة ؟ »

— ليس كثيراً .

— ليس كثيراً ؟ هذا أفضل ، ولكنك تأخرت .. لماذا تأخرت ؟ هل أنت جوعانة ؟

ودست عائشة اصبعها بين أسنانها وعضت عليه مترفقة :

— هل صحيح ؟..

وقطعت الأم عبارتها ، وانتظرت عائشة تكملة السؤال ، ولكن مرت تلك اللحظة الحاسمة التي تشعر المرء أن كلمة أخرى لن تضاف مما حدا بعائشة أن تخف لتصل ما انقطع :

— صحيح ماذا ؟ ..

— أوه لاشيء ذي بال . هل تغتسلين أم تأكلين ؟ أيهما تؤثرين البدء به ؟

فقال الفتى :

– هل أمتح لك بعض الماء البارد من البئر أم تؤثرين الماء الساخن ؟

وحدث نفسه « الخنزيرة تتجاهل .. لو كان في مقدوري . لتذهب الى الجحيم » ثم استرق النظر الى داخله ، فخجل وسخر وضحك معاً . وسألت عائشة للمرة الثانية :

– صحيح ماذا ؟ ما هو هذا الصحيح ؟ عن أي شيء تتحدثين ؟

واسقط في يد الأم وناضلت نضال السمكة العالقة :

– انما .. انما كنت أتساءل هل صحيح ؟ « ثم بعجلة » . يقال ان أجور كن ستنقص لرداءة الموسم .

وهبت على عائشة نسمة باردة أو هكذا خيل اليها ، ثم ابتسمت .

– ليس رديئاً لهذا الحد .. ان التبغ معافى اكثر منه في السنة الماضية .

ونفذت الى انفها رائحة التبغ الخام المخزون ، رائحتها هي بكل عرقها وغبارها ، وكأنها تشمه للمرة الأولى وتساءلت « لماذا لاتكون له هذه الرائحة المقيتة هناك ؟ » واستنكرت ان تكون مصدر هذه الرائحة . وتذكرت انه ينبغي عليها ان تغتسل . كانت الام قد اقتربت من اللفافة حتى صارت لصقها فسرقت منها لمسة رقيقة ، ثم جلست بجانبها وراحت تواصل اليها النظر .

- هل أمتح لك بعض الماء ؟ اني اوثر ماء البئر في جو كهذا ..

وقدم لها كرسيا :

- الست تعبة ؟

وفكر « في هذه الصرة شيء يخصني حتما .. أعرف ذلك من عينيها المتهربتين واجفانها المرخية » . وانزاح الغطاء عن فم الدهليز، فرده الى موضعه . كان قد رسم منذ زمن حداً لخجله وكان لا يحب ان يتخطاه .

قالت الام :

- اذن كنت في السوق ؟! حسنا ؟ ولكن لاتتأخري بحق النبي بعد اليوم ..

وتساءلت عن محتويات الصرة ، وامكان مايخصها منها .

- الست جائعة ؟ انك لاتأكلين كفاية في الايام الاخيرة ؟..

وفكرت : « النحول يبدو عليها .. لماذا هي نحيلة ؟ صحيح انها لم تكن افضل كثيرا عند زوجها ولكنها اليوم ناحلة ناحلة .. » وخطرت لها خاطرة سرعان ما ابعدتها « اعوذ بالله .. استرنايارب» ومرت بيدها على جبينها .

- ياله من يوم حار !

كانت لاتدري في الواقع افعلت ذلك لتمسح حبيبات العرق الناضحة او لتمسح الفكرة التي خطرت ، ولكنها على كل حال كانت كمن فوجىء بمنظر لايسر ، او ليريح فكره المكدود .. وتذكر الفتى ان عليه ان يمتح الماء من البئر، وقد كان يتساءل « كم يمكنني ان استخلص منها ؟ » . وانطلق لفوره الى صحن الدار، فكشف البئر ، واغتنمت الام فرصة انفرادها بالفتاة فكررت سؤالها :

– اين كنت ياعائشة ؟..

فتنهدت عائشة بعفوية وهي تتحسس اضراسها العليا بطرف لسانها ، ثم قالت :

– في السوق .

– حتى هذا الوقت ؟

– حتى هذا الوقت .

وبسطت الام يدها كأنها تقول « يا حيرتي » . ولم تلحظ عائشة حركة أمها ولو قدر لها ان تلحظها لفسرتها : «أمي تقرأ الفاتحة او امي تدعو ربها » . ان عائشة في الثامنة عشرة من عمرها ، وهي تصلي منذ سن الثانية عشرة . تزوجت منذ خمسة اعوام من رجل وجبته خمسة ارغفة خبز مع ادامها . ولكن زوجها مات ذات يوم ولم يكن موته بسبب خمسات ارغفة الخبز اليومية ، وانما بحادث في

المينـــاء . وهكذا سقطت ورقة عائشة - بلا تمهيد - من شجرة السماء ، كفرعونية صغيرة .

وتلمست الأم اللفافة وهي تحاول ان تخمن مضمونها ، فصر الورق تحت لمسات أصابعها الحانية . أشارت عائشةبرأسها وهي تحل شعرها :

- فكي رباطها . . هناك مايخصك فيها .

واندلق شعرها على ظهرها عسليا موصولا كدفقة السوس المصبوب من دن التخمير . قال الفتى :

- لقد امتحت لك بعض الماء . .

وعصر يديه المبتلتين ، ثم نقل بصره على التوالي بين أخته وأمه والصرة . وأضاف :

- ان أبي آت .

ولم يلبث ان ارتسم ظل على عتبة البيت ، استطال شيئاً فشيئاً حتى ملأ الغرفة ،وانعكس نصفه العلوي على الجدار المقابل بفعل الشمس الغاربة . وخيم الصمت وتململ الفتى ثم انسحب مثل كلب مبتور الذيل قائلاً :

- لقد تركت الدلو في البئر .

واستدرك الفتى علىشيء منالغيظ.وهو خارج : « انماقصدت

ان أقول ثبت حبل الدلو في شق في فوهة البئر ». ردد الأب ثانية وهو يهز رأسه ساخراً .

ــ . انه نسي الدلو في البئر أو البئر في الدلو . ان الأمر لديه سواء .

لقد كان يبحث عن طرف خيط وقد أعطاه الفتى له، ولكن ليلفه حول عنق آخر . وثبت الطعم ، وألقى الصنارة :

ــ وأنت في أية بئر أسقطت دلوك ؟..

وتململ شيء في داخل الأم ، وأهاب بها لتصحح « لقد قال: تركت وليس اسقطت » ولكن نفس ذلك الشيء عاد فأهاب بها ألا تفعل . لقد أطل الجرذ لحظة ثم انحسر . قالت الأم :

ــ لقد مرت بالسوق .

وفكر : « أعرف ذلك .. الصرة تشهد » وتقدم خطوة فتمدد الوحش على الأرض والجدار حتى أطل برأسه من سقف الغرفة التي كانت إسطبلاً من قبل . واختفى الجرذ تماماً .

ــ لقد مررت بالسوق .

ورنت عائشة الى أبيها . كان واقفاً هناك وسط البيت، طويلا نحيلا ، فذكرها بعمود كهرباء منطفىء المصباح ، كثيراً ما اتخذت منه شاهد توقيت وهي في طريقها الى العمل .

ــ بالسوق أم بالقمر ! ..

فحدثت نفسها « لم أره مرة مضاء » .

ــ ليست لي أجنحة لأصعد الى القمر .

فقال بلهجة ذات مغزى :

ــ لست بحاجة الى أجنحة .. ان الأرض مليئة بالأقمار .

ولم ترتح الى لهجته فتساءلت : « ماذا يعني ان الأرض مليئة بالأقمار .. أوه لماذا هو معقد هكذا ؟! » وعبر خاطرها مصباح الكهرباء المنطفىء ففكرت : « متى أراه مضاء ؟ » .

وأحست بالضيق فمسحت على عنقها . كانت موجة الحر قد ازدادت في تلك الفترة المعلقة بين الليل والنهار . وأومأت برأسها الى اللفافة ، وهي تمضغ طرف لسانها على فكها الأيسر .

ــ لقد ابتعت بعض الحاجيات .

وبدأت الأم تحل الربطة كأنما أعطتها كلمة السر . ودارت عائشة ببصرها في أرجاء البيت ، فغمزت لها قطعة صابون من فوق الرف ، فلم تلتفت إليها ولعلها لم ترها .

ــ لماذا لم تقولي ذلك منذ الصباح ؟

والواقع انه لم يكن لزاماً على عائشة ان ترسم خط طريق العودة من العمل . كان اليوم آخر الشهر ، وكانت العادة أن ترتاد السوق في مثل هذا اليوم . فقد قالت الأم منذ خمسة أيام وهي ترفو شرشفاً « هناك أكثر من شيء تالف يا الهي ؟ » ربما قالتها الأم عرضاً .

ولكن رأس الكلبة قد تحرك في أعمـــاق عائشة . لقد أدركت ماينبغي عليها ان تفعل كما كانت هناك وصيات أخرى .

– لم أر ضرورة لذلك .

– لم تري ضرورة لذلك .. أنت بنت سائبة .

وانتفض عرق في صدغ عائشة ، واكتفت فيما بينها وبين نفسها : « أنا لست سائبة » وسادت فترة صمت . وغمزت عائشة قطعة الصابون من فوق الرف ، وسأل الأب وهو يجلس على خوان متظاهراً بالهدوء :

– قولي أين كنت ؟ ..

ونشرت الأم عالياً برؤوس أصابعها قطعة قماش مزهرة لا تتلاءم مطلقاً مع جو القبو وهي تقول في ذاتهـــا : « طول عمرك يازبيب .. » وداخلها شعور بالارتياح ، اذ أدركت ان القماش يخصها ، فتابعت « .. لماذا لايكشف عن مراده مرة في حياته من أول وهلة » وظلت قطعة القماش بعناية فائقة وتساءلت : « كيف كانت حاله مع زوجاته الاخريات ؟! ياربي انه لم يعد يطاق » .

كان في الخمسين من عمره ، وكانت حياته أشبه بالسمكة الطيارة ، فقد عمل معمارياً ، ونجاراً ، وجندياً ، ودهاناً ، كما اشتغل في أخريات ايامه قصاباً . كان رجلا صالحاً أو هكذا خيل إلى الناس ، حتى كشف أمره خبيث ذات يوم . فقد أشاع انه رآه ليلة عيـــد

الفطر بالذات. رآه يخيط « إليات الضأن » الى أقفية الماعز. وتندر جيرانه في اليوم التالي بهذا الحادث وضحكوا وهم خروج من صلاة العيد وقال أحدهم: نعم كان ماهراً حتى انه كان يجعل من أناث الذبائح ذكوراً. قال مرة « لن اشتغل بعد اليوم » وهكذا أحال نفسه على التقاعد، ثم لزم البيت. وفي البيت كان يراوده حنينه الى مهنه القديمة من فترة الى فترة: فقد رمم السقف والجدران وطلاها بالجير، وعبد أرض الغرفة، وأصلح الكوى كما اصطنع طاولة، ولكنها ظلت أبداً ترتعش من أخف اللمسات. وعبثاً ما كان يدخله عليها من تعديلات من حين الى حين. لقد أزمنت الرعشة فيها فتركها لحالها. قالت عائشة وهي تطوي بعض ثيابها الداخلية النظيفة:

– كنت في السوق.

وخرجت الأم تحمل قطعة القماش مزهوة.

– سأمر على الخياطة.

والواقع انما كانت تريد ان تقول « سأمر على الجيران ».

واستوقفها الفتى عند البئر.

– ألم ينته بعد؟..

ولمس القماش الجديد.

– ماأجمله؟ مبروك.

– لم ينته.

وتابعت الأم طريقها فتمتم :

ـ تمساح لعين .

وارتفعت بعد قليل صرخة مكتومة ،فحدث الفتى نفسه: « ها قد بدأ بضربها »ثم صرخة أخرى اكثر وضوحاً ، فقال«ولكن هل القصة حقيقية ! » وعدا نحو البيت طفل فحاول ايقافه:

ـ سليم ؟ لاتدخل .

ولكن الطفل لم يلتفت اليه ، فتابع الفتى بلاوعي وهو يسقط الدلو في البئر « دعه يؤدبها » . وانزاح الغطاء قليلاً عن فم الدهليز فأعاده الى موضعه. « ولكن هل يحق لي ؟! » وأطل الجيران من ابواب الاقبية التي كانت اسطبلات لبغال الاتراك ثم الفرنسيين من بعدهم ذات يوم ووقفوا على عتباتهم بلا حماس . كانوا من فئة العمال وانما خرج معظمهم لمجرد تجزية الوقت بعد أخذ وجبة العشاء .

كانت الدنيا قد تسربلت بذلك الرداء الرمادي الذي يعقب فترة الغروب . وافرغ الفتى دلواً طافحاً آخر في صفيحة ، ثم حملها الى المطبخ فتبعه شريط ماء من سافل الصفيحة ،وقد تردد في خاطره: « هل امضي ؟» . وأطل جار آخر وهو يدعك عينيه ولعله استيقظ لتوه من النوم . قال ساخطاً :

ـ ماذا يجري هناك ؟.

فرد عليه ثان :

ـ رستم وعائلته .

فصحح عجوز :

ـ رستم وعائشة .

فقال الرجل الذي أطل مؤخراً :

ـ وهل تستأهل الحكاية ؟ ماذا لديه من جديد ؟

فرد العجوز، وكان جالساً على كرسي نصفي، وقد اسندظهره الى جدار :

ـ ان لديه دائماً مايقوله ضد الاخرين .

وشق السكون صرخة جديدة مكبوتة ، تبعها عويل طفل يصحبه ارتطام خشب بجسم معدني . فتابع العجوز .

ـ ليذهب احدكم ياشباب فيفض هذا الخصام .. ان الخصام عمل من الشيطان .

ـ الى الجحيم رستم وعائلته . لقد ايقظوني من النوم .

ثم نكص الى الداخل وهو يتساءل :

ـ ياله من حي لعين ؟ لماذا قطنت في هذه الشكنة ؟!

قالت امرأة :

ـ الايوجد احد هناك ؟ لماذا لاتتدخل امها في الأمر؟

فقال زوجها :

ـ صه ! هيا الى الداخل .. ابنك يبكي .

فلملمت نفسها ومضت الى الداخل . علق رجل :

ـ لعلها لاتجرؤ .

فسأل آخر :

ـ لماذا ؟ ماالذي يمسكها ؟ انها امها ؟

فرد الأول :

ـ لست أدري . الناس يخافون .. اننا نبدو في الظاهر اكثر شجاعة ، ولكن لكل شخص مايخشى عليه .. فما الذي يمسكك انت ؟ لماذا لاتتدخل ؟

ـ أنا لايعنيني الأمر في شيء .

ـ بل يعنينا جميعاً .

ـ لو كانت إمرأتي هنا لجعلتها تتدخل ... المسألة مسألة حريم .

ـ بل ورجال أيضاً .

فنهض العجوز قائلا :

ـ ليس لدي ماأخاف عليه .. انني على حافة القبر .. ليس ثمة ماأحرص عليه سوى طقم أسناني، وسأعرف كيف أطبق فمي وقت اللزوم.

وأحكم اغلاق فمه من قبيل المزاح، ثم اتخـذ سبيله نحو بيت

رستم فلحق به حفيده ، ففكر « لقد تبعني ظلي . هـــل أرده ؟ » .
وانسحب الرجل الذي تكلم أولاً ، فغمز أحدهم :

ــ لماذا يغلق بابه عندما يضرب امرأته ؟

فسأل ثان :

ــ لماذا يضرب امرأته ؟

ــ لست ادري .. ولكن الضرب للمرأة كاللجام للفرس .
فرس ليس لها لجام قد لا تقود الى السلامة .

وعقب آخر :

ــ يضربها لأنه يملكها .. انها الشيء الوحيد الذي يجده امامه
بعد تحطيم ادوات البيت . انه عاطل منذ شهر .

كان الصراخ قد هـدأ عندما وصل العجوز الى بيت رستم ، فوقف على العتبة بشيء من الخشية . كانت عائشة قـاعدة مطأطأة الرأس وكان شعرها المشوش يحجب وجهها ، في حين كانت يدها اليمنى تخطط دوائر وحلقات متداخلة وهمية على الارض ، وكان جسمها ينتفض من فترة لأخرى . أما رستم فكان واقفاً بجانبها ، طويلا كعادته وهو يكرر بلا هوادة :

ــ ماذا فعلت عند الطبيب ؟ ..

ــ من أجل أسناني .

ــ ما حال أسنانك ؟ كم مرة ترددت عليه ؟

– مرة .

– هل اسنانك مسوسة ؟

– كلا .

– إذن لماذا ذهبت الى عيادته ؟

– ...

وكرر رستم سؤاله بصوت كالرعد ، فجفل سليم فيما كان يجمع شتات محتويات اللفة . كان ثمة شرشف جديد في طرف القبو، واستلقى في جانب آخر منه سروال احد طرفيه مفرود، أما الطرف الآخر فما زال على طيته ، ولمعت في مكان ما من أرض القبو ازرار قميص صدفية ، كأنما هي نجوم توصوص من سماء بعيدة ، فقال سليم في ذاته :

« هذا القميص لأخي وهذا السروال لأبي » وطوى الكم المفرود وفكر « كأنه برجل واحدة » .

– لماذا ذهبت الى عيادته ؟

– من أجل سني .

– مالها سنك ؟

– ...

– مالها سنك ؟

– لقد سلخت الذهب عنها .

– لماذا ؟ هل كانت تؤلمك ؟

– كلا.

– إذن لماذا سلخت طبقة الذهب عن سنك ؟

وهمس الطفل في اذن جده « لماذا يضربها يا جدي ؟ أنت تقول : الضرب للملاعين والحمير . هل هي ملعونة ؟

وحدث الطفل نفسه « انها ليست حماراً حتماً .. انني اعرف الحمير ، فقد ركبتها اكثر من مرة » وفكرت عائشة ان تقول : « لقد وضعتم لي عندما زوجتموني سناً ذهبية لاعتقادكم انني سأكون مرغوبة أكثر ، ولكنني اردت أن اعرف ألست احلى بدون سن ذهبية ، مثل معظم الفتيات » ولكنها استبدلت ذلك بقولها :

– لم تكن منسجمة مع السن التي تحتها.

وفكرت ثانية « انها عادة قديمة لم تعد دارجة » ولكنها قالت :

– كنت اشعر كأنما في فمي حصاة .

وحدث العجوز نفسه « لقد وجد السبب هذه المرة ايضاً » وألقى نظرة على البيت « .. القبو أخذ في التحسن منذ عودة عائشة » وتلفت الطفل حواليه ، ثم امسك بيد العجوز قائلا :

– هيا .. لنعد كي نخبر الجيران .. انهم ما زالوا ينتظروننا.

وسحبه من يده فانقاد له الشيخ وهو يفكر « .. انه وجد السبب هذه المرة ، ولسوف يجده دوماً » .

وتساءل الطفل :

ـ لماذا يضربها ؟..

ـ لسبب ما في رأسه.. انك لن تفهم . انت كثيرالأسئلة.

وحدث الطفل نفسه « سأقص على أمي واختي كيف كان شعرها مشوشاً » واستخفه الظفر لانفراده بعرفة هذه الاحداث من دون الآخرين جميعاً ، فحلج في سيره « .. وسأخبر أبي عندما يأتي من العمل » وجذب يد العجوز .

ـ هاهم الجيران .. ألم اقل لك انهم ينتظروننا ؟

فسأل احد الجيران :

ـ هم . ما القصة ؟

واستفسر ثان :

ـ لماذا يضربها ؟ هل صحيح ما اشيع عنها ؟

فاكتفي العجوز وكأنه عرف مقدماً ما يدور فيرؤوسهم :

ـ يا بني .. ليس كل ما يقال صحيحاً .

وقال ثالث :

ـ اراهن انها كذبة .

فعاد الاول يقول وهو يحك ظهره الى الجدار :

ـ لعله هو الذي اخترع حادثة ذلك الشاب .

ـ أي شاب ؟..

ـ شاب ذو شعر أشقر .. يقال انه عالق بها .

ـ ولكن لماذا يفعل ذلك ؟ كيف يجرؤ ؟ انه ابوها ـ

فرد الاول ساخراً :

ـ لماذا يجعل من اناث الذبائح ذكوراً ؟

وقال العجوز :

ـ لقد ضربها في الشهر الماضي بسبب الخياطة .

ووضع احد الجيران ابهامه على صدغه :

ـ لعل في رأسه مشروعاً ؟

وقال ثان :

ـ ربما يريد أن يجعل منها مزواجة مثله .. يقال ان ثمة ثرياً مُسناً في الجوار يحوم حوله .

وافلت الطفل عندما لم يجد ثغرة ينفذ منها الى الكلام ، وانطلق نحو البيت . ولكنه وجده مقفلا فقال في نفسه : « لعل احداهما تمتح ماء من البئر » وعدا نحو البئر ..

كانت الظلمة قد بدأت تزحف نحو الكون مشوبة باحمران الغسق ، ذلك النوع من الاحمرار العكر الذي لا يترك أثراً طيباً في النفس ، وكان الصمت مخيماً الا من قرقعة الدلو على جوانب البئر .

ـ هل رأيت أمي يا رضوان ؟

وفكر « ما اجمل نطاقه ؟! »

ــ كلا .

ــ وأختي ؟

ثم يفكر ثانية « ما أشد لمعانه ! لعله من الذهب ؟ »

ــ متى اختك !؟

وصمت قليلا .

ــ انني ابحث عنهما . ترى اين ذهبتا ؟

ودار دورة حول البئر وقد استبد بـه الضيق . كان يخشى أن تفوته الفرصة دون أن يتعرض لحدث المساء . سأل :

ــ لماذا لم تتدخل ؟ لقد جذبوها من شعرها .

ومسح الفتى العرق الراشح من وجهه بظاهر كفـــه قبل أن يلفظ :

ــ أوه ..

ثم انحنى فأفرغ الدلو في الصفيحة المعدة لنقل الماء، واستوى واقفـــاً .

ــ .. هل كان ينبغي أن افعل ؟..

ورفع قدمه اليمنى فأسندها على ركبته اليسرى ثم تطلع الى حذائه وقال وهو يفكر : « الماء تسرب الى اصابعي .. اعتقد أن حذائي تشقق » .

ـ آه ؟ لست ادري .

وفكر ثانية « يلزمني حذاء جديد . انه موشك على البلى » .

ـ حسناً ؟ لعله ينبغي أن افعل .

وحمل الصفيحة ثم اتجه نحو مطبخ الدار المشترك، وقـــد تبعه شريط من الماء .

ماتَ البنفسجُ

وفي هذا الأصيل، كما في كل أصيل مضى، كان أولاد الحارة يلعبون بكرة القدم، وكانت سلمى مقبلة. قلت: «ياإلهي ألهمهم أن يتوقفوا لحظة». كانوا أولاداً أردياء. وغالباً ما كان يطل رأس من نافذة صاخباً شاتماً طالباً اليهم الانصراف، أو تظهر خادمة على شرفة وقد يئست من طردهم فصبت عليهم ماء. لكن شيئاً من ذلك لم يحدث الآن: لقد واصلوا كرهم وفرهم، وسلمى تتحاشى هذا وتبتعد عن ذلك. إنني في هذه اللحظة بالذات أود لو أطأ أعناقهم جميعاً. ما هي إلا ثوان حتى تمر الأميرة اللطيفة تجاه بيتنا.

انتقلنا الى هذا الشارع - أمي وخالتي وأنا — منذ أربعة أشهر ابتدأت في أول شباط، ومع ذلك ما أزال أحس أني دخيل. انه شارع طبقة متوسطة، فيه مدرسة، طويل تنصب في طرفيه عدة أزقة، وهو خال من الحوانيت وهادىء في الأوقات التي لا يؤمه فيها أولاد الأحياء الجانبية للعب الكرة. وكان مسطوراً على الجدار في مدخله الجنوبي بخط طباشيري رديء وغير واضح «هذا شارع العشاق» وثمة عبارات أخرى متفرقة تكاد تكون

مطموسه مثل « نادية أجمل صبية في الحارة ، لكن وردة أسمن من البغل » وأيضـــاً « زوروا زينب من النافذة الشمالية فهي تتناول وجباتها اليومية واقفة . أما سلمى فقاطعوها لأنهـا صامتة كأبي الهول » .

عندما قرأت هذا ضحكت ، ثم فكرت « إن هي إلا أسماء خيالية » . لم يكن لبيتنا نوافـذ تطل على الشارع وليس له شرفة كالبيوت الأخرى، ولهذا كثيراً ما حملت كتاباً واتخذت أول دكة من السلم المؤدي الى سطح المنزل قرب باب الدار. وفي اللحظات التي كنت أسأم فيها من الوحدة في الداخل ومن القراءة والتأمل ، كنت أقف على العتبة مستنداً بكتفي الى اطار الباب الخشبي . ها هنا وقفت ساعـات طوالا مبدأً الوقت بمشاهدة المارة . ها هنا عرفت أشياء كثيرة عن فتيات حيّنا الجديـــد بثيابهن الضيقة وشعرهن المقصوص : الفتاة المدربة ذات النظرة الثابتة ، الفتاة المبتدئة القلقة التي تنظر الى الوراء كل بضـع خطوات لتطمئن لوجود الحبيب ، وتلك التي تستتر في الظلام برفقة شاب . أنا أكره أن تمارس الفتيات اللطيفات الحب في الزوايا المظلمـة . لقد كانت الأسماء الطباشيرية المسطورة حقيقية . ولاحظت أن الفتيات يبدلن أحباءهن بالسرعـة التي تبدل بها الحرباء ألوانها فازدريتهن لذلك . كن إذا تعين من التسكع أمام مدرستهن في الصباح والظهيرة قبل الدخول اليهـــا ،

تسللن الى الشرفات أو ربضن وراء ستائر النوافذ بين الأصيل والمغرب يوزعن الحب على الشبان . أما النافذة الشمالية فقد ضربت رقماً قياسياً بعدد العشاق . لقد أسفت من أجلها وودت لو تكون أختي لأصونها . ان زينب رائعة مثل كعكة العيد .

طالت وقفاتي على عتبة الدار فعرفت أن ثمة سلمى حقيقية في الحي . ان سلمى لاتقص شعرها على طريقة الصبي ، ولا تمشي باستهتار كالأخريات ، ولا تحك وجنتيها الشاحبتين بالجوخ . كان عمرها بين السادسة عشرة والسابعة عشرة ، قامتها معتدلة ونحيلة الى حد ما وبشرتها بلون اللبن تميل الى الشحوب ، حتى ليخيل للمرء لأول وهلة لرقتها وشحوبها انها تعاني مرضاً مزمناً ، عيناها عسليتان واسعتان هادئتان تظللها أهداب طويلة .

وكانت لا ترفع بصرها عن مقدمة حذائها إلا نادراً أو لتتفادى ماراً ما . وكان كل لون من هذه الألوان يكسبها في نظري شكلاً ومعنى . فهي ،بصدريتها البيضاء ، أشبه بمرضة عشقت أحد مرضاها ، وهي بثوبها الأسود المحتشم وضفيرتها الكستنائية الثخينة المنحدرة من جانب عنقها الأيسر ، حيث تستلقي باهمال على صدرها ، كقطعة من حبل بحار قديمة ، مثل فتاة يتيمة زاهدة في الحياة . وهي في فستانها الدفلي مثل كم ورد كبير قطع عنه الماء.

ولكن أحب ألوانها الى قلبي كان اللون النيلي ، ولعله كان

المفضل لديها أيضاً . إذ كانت في هذه الحالة تقسم شعرها الى ضفيرتين وترسلها الى الوراء . وفي بعض الأحايين كانت تعتمر « بيريه » ذات لون سماوي مشوب حتى لقـــد شبهتها في لحظة من اللحظات بزهرة بنفسج .

كانت خطواتها القصيرة الهادئـة ، وكتاباها المدرسيان الصغيران الأسودان وكانت حدبة ظهرها الخفيفة، وانعطاف رأسها قليلاً الى اليسار ، ثم لون بشرتها السفرجلي ، تحملني الى جو الأديرة وأقبيتها الرطبة وتذكرني بالحملان في المروج الخضر .

كان يقوم منزلهـــا في المنعطف الى اليمين وسط حديقة لا يغفل البستاني لحظة عن الاعتناء بأزهارها . وما كانت تغيب آخر طية من ثوبها وهي تدور لتدخل الشارع الثاني ، حتى تصير في عالم حلمت به دائماً . يا لها من أحلام أطفال ، ولكن من منا لا يحلو له أحياناً أن يحلم كالأطفال ؟..

يفتح الباب الأسود الخشبي الكبير. هناك خادم في العاشرة يرتدي ثياباً بيضاء ويعتمر عمامة ضخمة مثل هنـدي صغير يتناول كتابيها الصغيرين الأنيقين وينحني حتى تكاد جبهته تمس الأرض ،بينما يـتراجـع خطوتين الى الوراء . ثمة تجويف في الجدار نصف دائري علق في صدره جسد المصلوب . تتقدم سلمى أربـع خطوات وربـع الخطوة ، ثم تركع وتبدأ في الصـــلاة . في البداية يكون صوتها

خافتاً وغير مسموع ، ثم يتدرج قليلاً قليلا في الارتفاع حتى يقف عند طبقة معينة بشكل يمكن معه تمييز كلماتها بوضوح . عند ذلك تسمع هذه الصلاة :

« يا إلهي أنزل مطراً في الشتاء .
يا إلهي مر الزهور أن تتفتح في الربيع .
يا إلهي عر أشجار التين في الخريف ، واجعلها تحمل ثمراً في الصيف .
يا إلهي احفظ أبي وأمي من المرض وكذلك كل أهل الأرض .
يا إلهي لا تغضب على ذوات الشعر المقصوص ، لأن شعرهن سينمو من جديد .
يا إلهي احفظ خادمي الصغير ، كي لا أظل بلا خادم .
يا إلهي احفظ حمامي وكلابي وقططي ، ولا تجعل كلابي وقططي تأكل حمامي . »

وبعد أن تنتهي من صلاتها ترسم إشارة الصليب ، وتنهض وقد اكتسى وجهها مسحة إلهية ، وشع من عينيها نور هادىء لطيف ؛ وتسير ذاهلة فيحييها الخادم الصغير الذي وقف عند بداية الدرج من جديد بانحناءة أخف من الأولى ، فتمسح بيدها الناعمة على وجهه الغارق في السمرة ، وعندما تستقر أصابعها عند نهاية ذقنه

ترفع وجهه الى أعلى بحركة رفيقة ، وتنظر قليلاً في عينيه ، ثم تتمتم بيعض عبارات المباركة ، وتصعد الدوج وتبدأ فيتبعهـا الخادم من السلم المقابل ويفتح باباً فتدخل الأميرة اللطيفة وتتهالك وقد اشتد شحوب وجهها على فراش أبيض لـين . فيسارع الصبي ذو الرداء الأبيض والعمامة الهندية حاملاً مروحة ذات قبضة طويلة فيحركها مرة كل تسع ثوان .

في أيام الآحاد كانت تلوح لي أكثر بعداً عن هذا العالم .
لقد لحظتها دائماً عدا هذا اليوم من الاسبوع – الأحد – إنها ما أن تصير على بعد ستة أمتار أو سبعة من باب دارنا حتى تختلس بحركة غير مباشرة نظرة من تينتنا المغبرة التي تطل على الشارع ، وقد شملتني نظرتها مرتين . لم تكن نظرة طويلة، بل قصيرة متمهلة لا تكاد تنتهي ، وكانت تبعث فيّ خدراً لطيفاً كأنفاس البنفسج ، خدراً لا يجثم فوق الصدر فيرهقه ، ولكنه أشبه بذلك الشعور الناعم العذب الذي ينتاب الحالم للحظة ليس غير في ليلة شتوية قرب المدفأة . كان هذا في البداية . ولكن ذات يوم – لم تخرج سلمى خلاله الى مدرستها بسبب وعكة ألمت بهـا إذ كانت في اليوم الثاني أشد شحوباً – أدركت أن رؤيتها باتت ضرورية كخبز الصباح .

إن ثمة فتياناً كثيرين في الحي يلاحقونها . أنا أدري أن واحداً منهم لن يستطيع أن يوقعها في شباكه ، ولكنني أشفق أن

تسمع كلمة لا تحب . ان هذا سوف يبكيها حتماً ويجعلها تفكر فيه كل يوم . وهكـذا حفظت برنامجها اليومي تماماً وتبعتها أحياناً مثل كلب الحراسة ، ولكن من بعيد . أنا لا أريد أن تنظر الى الوراء مرة فتراني أرقبها . وكما انها حريصة على الصـــلاة ومباركة الخـادم كذلك اعتادت من مساء كل يوم أن تمضي لزيارة خالتها المقعدة التي يقع بيتها في الحي الثاني . وذات مرة كانت تحمل بيدها طاقة من الزهور . لشد ما وددت أن أحمل الطاقة بدلاً منها . كان بصرها آنذاك أكثر اصراراً فوق حذائها ورأسها معطوفاً أكثر من ذي قبل . وكنت دائماً آخذ على أهلها هذه الخطيئة .

لقد وفروا لها كل أسباب الراحـــة والرفاه ولكن هذه الطاقـة ، هذه الكتب الصغيرة البنية والسوداء ، لماذا لا يحملها الخادم ؟.

« أواه يا إلهي كم أرغب أن أقوم من أجلها بعمل طيب . انني أود ذلك من صميم قلبي . اجعلها يا إلهي مصادفة . أنا لا أريد أجراً . وعند ذلك سوف ينطلق فمي لك بالدعاء » .

وكثيراً ما فكرت بهذا :

سلمى عائـــدة الى البيت ذات مساء . والأولاد يلعبون بالكرة فيصيبها أحدهم . انتهز الفرصة وأضرب الولد الجاني فتأتي هي تعتقه .

ـ أوه سلمى . كان ينبغي أن لا تفعلي ذلك . انهم أولاد أردياء .

ـ ليس ثمة أردياء على الأرض . كل الناس صالحون .

ونسير الهوينا ..

ـ ولكنه أصابك .

ـ آه هاهي اصابته .

وتنفض باصبعها الغبار الذي علق بثوبها وتقول :

ـ أترى ؟ لم يعد ثمة اصابة . لقد زالت . أترى ؟

ويجري لساني بصمت :

ـ يا إلهي ما أطيبها !

ويأخذني الخجل من لطفها فأغمغم :

ـ عفواً . لم أكن أدري أن هذا لا يزعجك . لن أفعل ذلك ثانية .

وتتابع سيرنا في صمت وآلاف اجنحة الهوام ترف في سمعي . ومئات البقع الصفراء والحمراء المتطاولة والمتجددة باستمرار تلوح امام عيني قبل أن أقول بصوت أخاله آتياً من صدفة بحرية :

ـ أنا أحب ضوء القمر على شجرة من الصفصاف اغصانها متدلية فوق نهر من الفضة . أنا أحب أمامي الخريف ومئة الف

فراشة ملونة . أحب البنفسج والفاغيه والياسمين ، ورتلا من الجمال يقوده طفل في فجر رائع .

وتستطرد وقد شردت عيناها قائلة بصوت أقرب الى الهمس أو النغم البعيد :

ـ على رابية خضراء والشمس الذهبية تشق طريقها بجهد عبر الغبش الرمادي ، وصلصلة اجراسها الرتيبة المتقطعة تزف للسماء تباشير الحياة .

واضيف من حلق جاف :

ـ وهناك عند نهاية الافق الفاقع الخضرة قرب السماء ،ذات الزرقة العميقة ، يقوم بناء قرميدي فخور بلونه النبيذي الزاهي ، وثمة سبع حمامات بيض أو ثماني يحرمن فوقه وحواليه ، ويظهرن ، تارة كمثلث وطوراً كمتوازي أضلاع ، ووراء صف من أشجار الحور المعطوفة رؤوسها نحو الغرب . ثمة دخان رمادي يتصاعد حلزونياً من أحد جوانب البناء القرميدي ومن اسطبل ما بعيد يردد الصدى خوار ثور ناعس .

وعندما نحاذي بيتنا نتمهل أكثر فتسأل وهي ترنو الى تينتنا :

ـ مااسم هذه الشجرة ؟

ـ فأقول انها شجرة تين . ألا تعرفين ثمار التين ؟

ويرتفع حاجباها دهشة :

- تين ؟ لقد حسبتها تفاحاً حقا ؟ ان جميع الاشجار متشابهة بودي لو أرى شجرة تفاح حقيقية .

ويغمغم لساني بصمت:

- ياللسذاجة ! ياللسذاجة !. ان الماء نفذ من سلة الراعي ، عندما دخلت الى ذهنه الحقيقة .

وأسارع :

- صدقيني انها شجرة تفاح حقيقية . أواه ياسلمى لاتجهدي نفسك فهو تفاح حقيقي .

وتعود عيناها فتشردان

- لعلها كذلك . من يدري ؟

وأقودها الى الداخل .

- هذه أمي ، وهذه خالتي ، انهما تحبانك . لقـــد حدثتهما عنك دائماً .

وتغمغم أمي :

- ياالهي ماألطفها . أنا لم أر منذ مائة عام فتاة تصنع ضفائر.

وتدمدم خالتي ، وهي قابعة في مكانها الأبدي :

- احفظها يارب .

- انظري ياسلمى هذه كتبي . ألا تحبين الكتب ؟ .. هذا ديستويفسكي ، اندريه جيد ، اكسوبري ، موزباك وهذه مينو (مينو أو الحب) لطاغور ، هل أحدثك عن مينو ؟

وترتعش عيناها وحاجباها بالايجاب :

تساءلت مينو المريضة ذات صباح: « أرى أن هذه الشجرة تفقد أزهارها الجميلة شيئاً فشيئاً . وكل يوم جديد يذهب ببعض بهائها . فلماذا ؟ » ثم قالت لخادمتها : « اذهبي واقلبي الارض حول جذورها واسقي جذعها في كل يوم » .

وفي صباح أحد الايام رأت مينو كاهناً برهمياً يمسك سلة بيده ، ويهز بالأخرى الشجرة في عنف ، وعندئذ أدركت لماذا تزول الازهار عن شجرتها . واستغاثت مينو بخادمتها : « هيا انزلي بسرعة وعودي الي بالبرهمي » .

ودخل الكاهن الغرفة فحيته مينو وهي في سريرها بخشوع .

ـ أبت . لمن تجمع هذه الازهار ؟

ـ أجمعها لله . لا لسواه

قالت مينو

ـ ولكن الله هو نفسه الذي أرسل هذه الازهار الي .

ـ اليك أنت ؟

ـ أجل الي. والله لا يستعيد أبداً ما يهبنا .

غضب الكاهن البرهمي . وفي صباح اليوم التالي كان تحت الشجرة يهزها بقسوة . ودعت مينو جميلة الجميلات خادمتها وقالت :

ـ : بربك انقلي سريري الى الغرفة المجاورة ، قرب النافذة

المطلة على جهة أخرى . خذيني بعيداً ، بعيداً جداً . انني لا أطيق رؤيته » .

عندما صار الحر لايطاق في المدينة مضت سلمى برفقة ابيها وامها الى احد جبال لبنان ، وهجر أولاد الحارة الجانبية لعب الكرة ، فأمسى الحي مقفراً وكئيباً للغاية . صرت لاأقف على عتبة الباب الا نادراً ، وكنت اقضي معظم وقتي تحت السرير اذ كان الجو هناك اكثر طراوة ، قارئاً أو حالما ، وغازلا آلاف الخيوط حول ذات الجدائل . لكن ميلي للقراءة أخذيفتر شيئاً فشيئاً . وذات يوم نحيت الكتاب جانبا ، وجررت نفسي خارج السرير . كان الوقت ظهراً والحر شديداً .

فتحت صنبور الماء ، ووضعت رأسي تحته ،ووقفت في صحن الدار والماء يقطر من شعري ووجهي ابحث عن مكان أستظل فيه . ومضيت تحت شجرة التين وجلست على أول دكة . وبعد قليل تلاطمت اوراق التين ثم سقطت ورقة بجانبي . كان لونها أخضرشاحبا انتشرت فيها كثير من البقع الصفراء . ونظرت الى الجو . كان ثمة بضع غيمات رصاصية اللون ، فضجت أعماقي بحبور صامت : مرحبا أيها الخريف . مرحبا يا فصل النضج والجمال . خيل الي انك لن تأتي وها انذا انتظرك منذ الف عام .

وفي صباح يوم أحد تركت عتبة الدار المغطاة بورق التين

الاصفر في سبيلي الى السوق . كان ثمة في الطريق تلميذان صغيران يحثان الخطى ؛ وفي نهاية الشارع ترددت قليلا ثم انعطفت نحو اليمين . كانت المسافة من هنا أطول ، ولكن الشارع أهدأ . دق جرس دراجة فملت لاتفاداها. وحينما ابتعدت الدراجة خيم السكون من جديد ومشيت عشر خطوات أخر ، فتعالت ضحكة عن يساري . ضحكة رائقة كانت أشبه شيء بآنية من البلور تحطمت على أرض صلدة . لم أصدق أيا من عيني أو أذني في البداية ،ومع ذلك كان كل شيء حقيقياً ، حقيقياً أكثر من التلميذين الصغيرين والدراجة ذات الجرس ومن هذا الصباح نفسه . آه لو لم تصدر هذه الضحكة عنها . آه لو صدرت عن غيرها لكنت فديتها بعمري . يا إلهي لماذا تفعل ذلك ؟ لماذا ؟ كانت سلمى في الحديقة مع زينب وثلاث فتيات غريبات عن الحي ، وكان شعرهـــا مجزوزاً ، ووجنتاهـا موردتين . لماذا وجنتاها موردتان ؟ وكانت عيناها مشرقتين وذراعاها عاريتين . وضحكت ثانية ، ثم مالت على اذن رفيقتها فدفعتها عنها . وعندئذ استغرقن جميعاً في الضحك . أواه ياسلمى ماذا تقولين ؟ ماذا توشوشين ؟ لماذا تفعلين ذلك؟ أنا أريد أن أعرف لماذا ؟وبحثت عيناي عن الخادم الصغير بعمامته الهندية ، الخادم المقطب الذي لايرضى عن عمل سيدته ، ولكني لم أجد إلا رماداً . كان واقفـاً هناك مصلباً يديه فوق صدره متهلل الاسارير لمعاكسة الفتيات

فيما بينهن . وصاحت : « يا ابراهيم »! أي صوت جاف هـــذا . أين العذوبة والنغم البعيد ، أين الوداعة ؟ أين البنفسج ؟

وخف اليها فأشارت اليه بكل من سبابتيهـا وابهاميها . كانت اشارة تعني شيئاً دائرياً ، وابتلع الباب المارد . انه باب مبتذل يفتح ويغلق بسهولة . لقد حلمت انـــه سميك ، وانه لايفتح إلا بصعوبة مصحوباً بصرير حاد . ودارت عيناي تبحثان عن البستاني الكهل بظهره المتكور . لم أجد غير مراهق يقتلع شجيرات العنبر الذابل والاضاليا بقسوة . تساءلت : ولكن الحمام أين الحمام ؟ لابد أنه في مكان ما يهدل ، ولكني لم أر إلا الجدران العارية والقرميد الأسود .

كان كل شيء يبدو غير حقيقي ، ومع ذلك ها هي الشمس والاشياء تتحرك . والسماء التي كانت منذ لحظة زرقاء عميقة الزرقة أصبحت الآن أميل الى البياض الرصاصي .

لو قيل ان الشمس في هذا الصباح بالذات بزغت من الغرب وليس من الشرق ، وان السنونو نبتت له مخالب ، وان مربعاً من الفراش التهم بالامس غابة من البلوط ، لملت الى التصديق . ذلك لانه مات البنفسج . وبعد قليل شق الباب فظهر الخادم . كان يحمل بيده طبق تفاح حقيقي أحمر كالدم .

العَرَبة والرّجُل

حينما مات فهيم منذ شهرين لم يكن محمود قد هيأ نفسه ليحل مكانه . لقد استيقظت الأسرة ذات صباح فوجدت فهيماً ممدداً بلا حراك « لم يشك مرضاً يوماً » . قال محمود لنفسه وقد انحط بصره على البقعة التي يزحف عليها ظله المنكمش . كان محمود يقود عربته في مرتفع الطابيات ، وكانت مثقلة باثاث منزل .

لقد مات لمحمود اكثر من حمار ، ولكن فهيماً شيء آخر . كان يعرف ما ينبغي عليه ان يفعل في مختلف الظروف ، ولم يكن اسم فهيم قد اطلق عليه عبثاً ، فهو يبطىء عندما يتعين عليه أن يبطىء ، ويسرع حين تدعو الحاجة الى ذلك ؛ حتى أنه عاد الى البيت مرة وحيداً . وكان محمود يتفنن في مناداته . لقد أطلق عليه كلمة « فهيم » أول ما أطلق عندما لاحظ انه حمار غير عادي ، ثم تعددت الاسماء بعد ذلك : كفاهم ، وفهمي ، وفهمان . وكانت آخر اسمائه « أبو الفهم » .

لقد طرق الباب عليه في الصباح سالم وقال له .

ـ أريد أن أنقل أثاث البيت

فوافق محمود من حيث المبدأ .

ـ والى أين ؟ خير ان شاء الله .

ـ الى داري في المشروع .

ـ مبروك يا سالم .

ـ اتفقنا . ؟ أريد همتك وهمة فهيم . كيف حاله ؟ ..

مرة أخرى فهيم . لماذا يذكرونه به ؟ ؟ ..

ـ بسلامة رأسك .. لقد مات منذ شهرين .

وفكر سالم أن يعيد النظر في عملية نقل الاثاث .

ـ ولكنه سيكون من الصعب عليك نقلها .

فرد الحمال

ـ لا شيء يصعب على محمود .

ـ العوض بحياتك .. اتفقنا اذن .

« اتفقنا ». استرجعها محمود لنفسه بصوت مسموع مستأنساً، وتذكر كيف شد نفسه الى العربة عندما يمم صوب بيت سالم في الصباح ليبدأ نقل أثاث المنزل ، كما تذكر ايضاً نقلاته الست ، ثم طمأن نفسه « هذه آخر دفعة على كل حال .. وبعدها ؟ وبعدها ماذا ؟ انك ستمضي الى البيت دون شك .. يكفيك ماقمت به اليوم. أنت متعب » .

هو متعب، هذا لاريب فيه ، ولكن التعب شيء ينبغي أن لايفكر فيه الآن . انه لايزال في بداية مرتفع الطابيات . فليتشاغل اذاً بأي شيء آخر .

وظل لحظة بلا تفكير محدد . كان ذهنه فارغا تقريباً ، لكنه لم يكن أملس . كان في تلك اللحظة أشبه برجل يقف على مفترق طرق ذات مساء صائف في مدينة ليس فيها سلوى .

وتابع قدميه وهما تدوسان رسمه وقد أخذ ينزلق منسحباً الى الوراء . فانزلق فكره بعينيه من بين ساقيه بلا ارادة منه الى الوراء ايضاً ، حتى طرف الشارع عبر أسفل العربة . ولاحظ رجلاً يجتاز الطريق الى الرصيف الثاني وامرأة مائلة تحمل دلوا خمن انه ملآن .

وامسك بطرف الشارع فتساءل « كم بقي علي من الطريق؟» كان لا يجرؤ على رفع بصره لاستطلاع دربه .ان شيئاً ما قد بدأ يحزه في ظهره . وامامه عشرات الشواهد عليه ان يختارها قبل ان يصل الى غايته . وطار بخياله الى الدار الجديدة .

هو ايضاً كانت له أحلامه . لقد فكر أكثر من مرة ان يدخر بعض المال . فجمع مئة وسبعاً وتسعين ليرة . ولكن شيئاً ما كان يحول دوماً دون ازدياد هذا المبلغ . لقد رفض هذا الرقم بعناد ان يتحرك الى الأمام ، حتى جاء يوم استنفذت معظمه عملية اجهاض : ولم تبق إلا على خمسين منه : بالرغم من شفاعة شهادة فقر الحال . ثم قضى موت الحمار الأول مع كد ثلاثة أشهر على ما فضل منه .

لقد خطر له في ذلك الحين ان يفتتح حانوتاً . مجرد مبلغ صغير للايجار : ومثله للعمل . وبعد ذلك : « من دهنه اقليه » .

ولكن ماذا كان يمكن ان يعمل فيه . هذا أمر لم يقف عنده طويلاً . ولقد فكر بحانوت للخضار . وكان التفكير بمثل هذا العمل له مبرراته بالنسبة اليه . انه كثيراً ما يعاني من نفقات الخضار التي يحملها الى البيت . ولقـــد قال في ذات نفسه مرة « انني ابيع الطازج منها : وأحمل البائت الى البيت » . ولا غرابة في ذلك ، إذ كان محمود في الواقع أبا لسبعة أولاد ، أربع اناث وثلاثة ذكور .

كما بحث يوماً قابلية افتتاح محل للبقالة . ولكن سرعان ما استبعدها : اذ تتطلب معرفة بمسك الدفاتر للزبون وهـــذا مالا قبل له به .

لم ير على كل حال أي من هذه المشاريع وجه الشمس . لقد ظلت في اضبارة المحفوظات . ولكن ما باله الآن يعيد النظر في الماضي ، وينفض الغبار عن تلك المشاريع ؟؟ .

اليوم سيكون في حوزته مئتا ليرة . بما فيها الخمس عشرة ورقة اجرة نقل اثاث المنزل .

لقد قرر محمود عندما مات حماره الاخير ان يدخر ، كعادته ، مبلغاً جديداً من المال كي يشتري به حماراً ، غير أن بوادر مشكلة لاحت في افق الأسرة بالامس بسبب المبلغ لم تلبث أن انفجرت هذا الصباح ، عندما زف للعائلة نبأ صفقة نقل الاثاث .

كانت اكبر البنات من صف الأب . فقد كانت على أبواب خطوبة . لقد فكرت ان امتلاك ابيها للحمار سيدعم مركزها في ذلك المجال . حتى انها تخيلت أن حماراً مشدوداً الى عربة جدير بأن يوقع أثراً أطيب في نفوس الخاطبين . أما الابن فقد أراد الحصول على المبلغ لتنفيذ مشروع رآه الاب هوائيا ، في حين كانت الام تريد اقتطاع جزء منه لشراء ستائر .

« مجنونة » قال محمود وقد ازداد انحناؤه الى الامام بفعل تصاعد الطريق ، مما اضطره أن يبذل جهداً اكبر كي يحافظ على سرعته « من يشتري ستائر لبيت بالايجار مخلخل النوافذ ، وهناك الف شيء ألزم منه . وأي شيء الزم من حمار أشده الى هذه العربة ، الى هذا الحبل الذي عقر كتفي وأدماها .. آه لو كان فهيم معي اليوم » .

واشتدت حاجته الى حماره الراحل . كان فهيم اكثر من حمار يساعد محمودا في العمل . كان رفيقاً ، وكم باح له بمتاعبه العائلية . كانا يفهمان بعضهما . صحيح أن محموداً قد اقتنى كثيراً من الحمير ، ولكن فهيما انفرد بميزات لم تتوفر في الآخرين . وكان هذا الاحساس بالحاجة يتفاقم كلما تصاعدت الطريق .

كان الوخز قد اخذ ينتقل من أسفل الظهر زاحفاً الى المناطق العليا منه بعد أن ترجم الى ألم . لقد شعر به في الوسط أول ما شعر ، وبالتحديد في البكرة السابعة من العمود الفقري . كان

ذلك في الصباح بعد أن انجز قسما من العمل . لم يخطر له وقتئذ أن يستأجر عاملا لحسابه . كان محمود خلال حياته العملية كلها يشتغل منفرداً ، حتى اذا صادفه صندوق ثقيل مثلا رفعه بين يديه وأسنده الى مكان أعلى ثم نزل تحته وعتله على ظهره .

وازداد احساسه بالألم بعد أن وصل الى كتفيه « ماقيمة حمار الآن ؟ .انه يعادل وزنه ذهبا» لقد تساءل عن ذلك في نفس الوقت الذي أدرك فيه أن عليه ان يدير نفسه . لقد تلفت يمنة ويسرة . كان الوقت الثانية عشر ظهرا وكانت الطريق خالية ، أما الشمس فقد وقفت بدورها في الصف المعاكس له ، وانها قد اختصته من بين البشر جميعاً بكل ذلك الغضب الذي تنفثه في حزيران ، في الثانية عشرة من منتصف النهار . لعله بدأ يتذمر .

كلا . ولكن ما الذي سقط من الحمل في المؤخرة فتحطم ؟ والقى نظرة من بين ساقيه عبر أسفل العربة . فلفت انتباهه بادىء ذي بدء انحدار الطريق الحـــاد حتى طرفها الأول في القاعدة . وسرعان ما أدرك استحالة التوقف ، رغم أن هذه الفكرة كانت لاتزال احساساً بعيداً غامضاً .

ثم انسحب نظره على نحو عكسي مستطلعاً ، فتمهل عند الأداة المحطمة هنيهة ، وتابع بعد ذلك انسحابه حتى استقر في ذات نفسه فقال : « ترى كم ثمنها ؟ انها من البلور الجيد» وظلل جبينه نوع

من الكدر فقال: « ليحسم قيمتها اذاشاء ، فقـــد وقع ما وقع » واستغرب سقوطها مسترجعاً في ذهنه خلال ثانية من الزمن الحالة التي تركها عليها ، وندم لأنه لم يصطحب أصغر أولاده في هـــذه العمليـــة : لو كان معه فلعله من الممكن أن ينبهه في اللحظة المناسبة . كذلك فكر . أما من ناحيته فلم يأل جهداً في الحرص على الآنية . لقد دارى امرها فوضعها في صفيحة بعد أن لفها بزق قديمة منعا للاحتكاك . وفكر بعجب « اننا نحسب لكل امر حسابه ، ولكن شيئاً أقوى منا لايني يمد لنا لسانه بين حين وآخر . اننا لانستطيع أن نقف في وجه المكتوب » وقال أيضاً وهو يزرر عينيه ليمنع عنها ملوحة العرق : « ربما لو كان الحبل أطول .. من يدري » . وفكر أن أتفه الأشياء قد تسبب للمرء أذى بالغاً فقرر أن يكون أحسن استعداداً في المستقبل .

انه لحسن بلا ريب أن تفكر على نحو أفضل في المستقبل . ولكن ماذا بشأن الآن . وأنت على هذه الحال .. هو ذا شيء آخر يسقط .. انه المنبه هذه المرة .

وخيل اليه لفترة أن الزمن قد توقف ، وان العالم قد خلا إلا منه مشدوداً الى هذه العربة المثقلة ، والشمس فوقه تصب عليه جام غضبها . وأنّ تاريخـــه كحمال بدأ العمل منذ الخامسة عشرة ، ماضيه ، حاضره ومستقبله ، مهدد في تلك اللحظة . « هذه الدفعة لا ينقلها ثور .. إعمل حسابك يا محمود » . ذلك آخر شيء

قاله سالم . وفكر « ربما اخطأت في تقدير قوتي وهذا ليس ذنبي على أية حال .. ان المرء يجهل نفسه حقاً .. هيا يا محمود واخلص من هذه الورطة اذا كنت رجلا » ثم قال بصوت مسموع : «إنما أردت أن أنتهي باكرا .. كان لايزال هناك متسع من الوقت للمرور على مخزن مصطفى الطحان . يا الهي ان ورائي ثمانية أفواه باكون رأس الحية » .

وأفرغ محمود مزيداً من القوة . غير انه في الواقع لم يضف شيئـــاً جديداً الى قدرته السابقة سوى ضغط جزئي على ذراعي العربة ، لم يستطع المحافظة عليه طويلا . اذ ما لبثت أن تراخت قبضتاه ، فأدرك أنها النهاية . ورشح جلده عرقاً اكثر من ذي قبل نتيجة لشحنة الجهد التي بذلها مؤخراً ، وقد انضاف اليها احساس بالفشل لم يكن متوقعاً ، ونظر حواليه بلا هدف محدد شأن انسان موشك على الغرق .

كانت عيناه مليئتين بالدموع والضياء الباهر . وكان العالم عن يساره ظلالا تنقصها الحياة . لقد مسّ بصره فيما مس البحر والشريط الرملي والبساتين . كان يجوز في تلك اللحظة منطقة ليس فيها بناء . وكم حملت له هـذه الفجوة في الماضي انشراحاً خاصاً . وأحس أن الأشياء بدأت تفقد بريقها شيئاً فشيئاً بالنسبة اليه : فالبحر صفحة زجاجية غائرة اللون يفصلها عن الشاطىء حد رملي باهت .

وكانت البساتين ملفوفة بغلالة رمادية ، أما عن يمينه فثمة جندب يصر في أسفل جدار مقهى الطابيات .

واستحال الاحساس القديم بالخوف الى شعور بالعجز ، واحتلت المركز فكرة التوقف ، غذاها على التوالي احساس بالتظلم والتوحد والقهر والسن والتفاهة والعقوق ، وكل ما يمكن أن يكون في صفه لو كانت الحال غير ما هي الآن .

ولكن التوقف أضحى مسألة ينبغي عليه أن يعيد فيها النظر . كان قد قطع مسافة طويلة من الطريق الصاعدة حتى أشرف على نهايتها . وامسى الانحدار اكثر حدة . كان يحتاج في حال توقفه الى رجل يدعم عجلتي العربة من الخلف بحجرين . ولو توفر ذلك الرجل فمن ذا يضمن توازن العربة وعدم انقلابها على مؤخرتها في اللحظة الفاصلة بين تثبيت الحجر وصدمة التوقف » . هكذا فكر محمود وهو يرمش بعينيه الملتهبتين المخضلتين بالدموع . ثم أضاف صعوبة تحرره من الحبل المار فوق كتفه اليسرى عبر صدره في اللحظة المناسبة . ولم يلبث أن واجه نفسه بهـــذه الحقيقة « ولكنك وحدك يا محمود ، وحدك في هذه الطريق . لا أولاد ، ولا امرأة ، ولا عابر يدعم عجلتك بحجر .. يا هوه .. هـل خلت الدنيا من البشر ؟ ... ماذا بك ؟ هل اصبحت عاجزاً تماماً ؟ .. أنت تبكي ؟ . كلا .. أنت تضحك ؟ كلا .. انت تبكي وتضحك

معاً ؟ كلا ، لكني سأبكي حتما عندمالا يكون هناك ما أعمله . . ان المرء لا يفتقر الى الحيلة ، فثمة دوماً ما يمكن عمله . . يبدو لي أنه لا يزال في مقدوري أن أفعل شيئاً ما . . هيا يا محمود وامش في خط منحن ، ولكن الطريق تطول . ولكنه يسهل عليك صعودها ».

وانحرف محمود بعربته ودبت الحياة في العجلة اليمنى بعدان أوشكت على التوقف ، في حـــين تباطأت اليسرى وهي تدور على نفسها .

وازدادت ثيابه التصاقاً بجسمه ، وأمست كل خلية فيه عيناً تنضح عرقاً . وتصالب عرقان في جبهته واحس شريطاً بارداً تدحرج على ساقه انطلق من مغارة الفخذ .

ونشطت اليسرى بينا اخذت اليمنى تدور على نفسها . لقد طفا الرأس فوق سطح الماء من جديد . « عندما اصـــل الى تلك الصنوبرة . . تلك الصنوبرة . . ماذا بعد ؟ ساجد أولاداً وساطلب اليهم ان يدفعوا العربة من الخلف . هيا يا أولاد وادفعوا العربة مع عمكم العجوز . . ولكن الأولاد يلعبون عادة على عتبة العـابد . . ودار العابد أمست وراءك منذ زمن طويل . . اذن لا يوجد اولاد. سابكي هذه المرة دون ريب . . ها أنت تنسى مرة أخرى موقع الأشياء وقد نسيت من قبل »وسطعت في ظلام خيـاله كلمة «فحام» فاستدرك على الفور ضاحكا « ولكن اسمه مصطفى الفحام . وليس

مصطفى الطحان . . من أين أتيت بهـــذا الطحان يا محمود ؟ أنت تهرف » .

كانت الشمس حتى تلك اللحظة قد ركزت غضبها عليه . لقد بحثت في الشارع عبثاً عن ضحايا آخرين . كانت هي الاخرى تبدو متوحدة وضائقة بحملها . إنها راحت تقرع قرعاً متواصلاً على صدغيه وتكوى نقرته . ولكن آلامها لم تكن شيئاً ذا بال اذا قورنت بآلام ظهره . فمنذ قليل فرقع شيء ما في جسمه . وارتاع منه في البداية فارتخت ركبتاه . ولكنه لم يلبث ان اطمأن في اللحظات التالية حيث لم يقع ما يخشى منه . « انها جراح ورضوض قديمة .. كسور وصدوع اكثر من ان تحصى موزعة في انحاء هـذا البدن المهدم . لعل التعب قد حرك أحدها » . ومع ذلك لم يدخل هذا التعليل كثيراً من الراحة الى نفسه . كان قلقاً بشأن ظهره على نحو خاص .

ولاحق قدميه الحافيتين وهما تمران فوق ظله كأنماتحاولان أن تتخطياه . كما لاحظ انفراج أصابع كل قـــدم عندما تلامس الأرض ثم تضغط عليهـا لتنثني مرتفعة في الهواء . وشده شيء الى داخله « . من يستأهل مثل هذا التعب يا محمود ؟ . . ثـلاثون سنة وأنت تعتل على ظهرك . . بيتك بالايجار ، ونوافذك بلاستائر ، وأولادك يخجلون منك . . هه . لـنرى ماذا سيصيرون في المستقبل ؟ فرسان برماح ؟ هاها . . أي شيء في الدنيـا يعادل آلام ظهرك الان ؟

ولكن اذا استمررت في التفكير فيـــه .. طيب .. طيب بماذا أفكر ؟ خذ أم محمد مثلا . آه البنت الكلبة لقد رفضت ان تنام معها بالامس من أجل الستائر .. لو تعلم كم يكلف الحصول على القرش . . ولكن ماذا بشأن ظهرك ؟ ظهري من جديد .. آهماذا لو تصدع ؟ لو تصدع؟ ولكنه لم يعد ظهرك الآن .. احياناً انكر ذلك لولا الألم .. اما ذراعاك فلن تكونا لك بعد قليل على كل حال وسيزول دبيب النمل منها » .

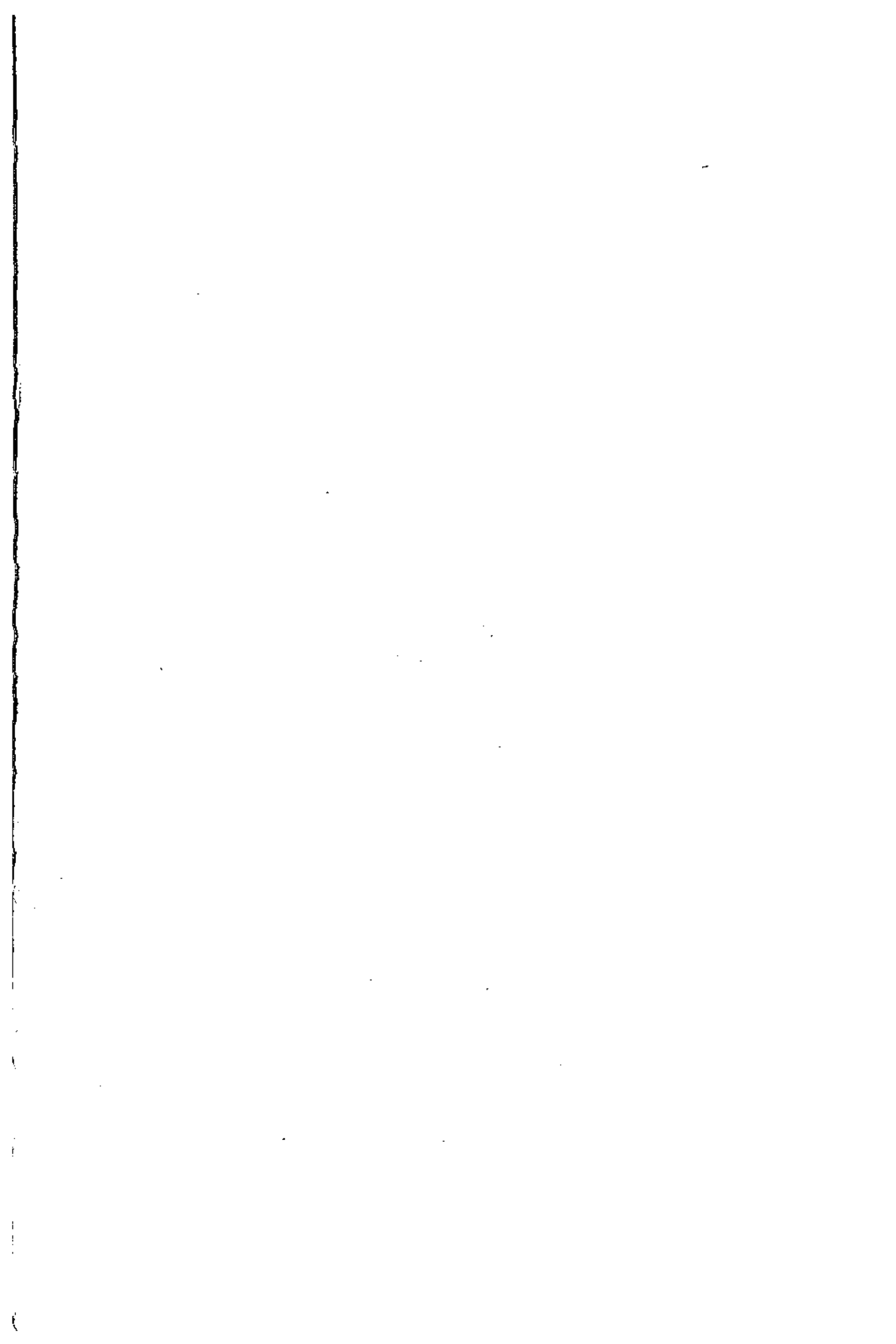
كان الألم في تلك اللحظة قد احتل الظهر والنقرة وركز فيها جيوشه . ثم راح يوسع منطقته فاتجه ناحية اخرى وأخذ يغزو الطرفين السفليين . لقد بدأ بالرجل اليمنى . كان الاحتلال كاسحاً ومريعاً . وقد تم له كل شيء في نفس اللحظة التي انطلق فيها حتى ان الجسم لم تسنح له اية فرصة للمقاومة . لقد وجد نفسه مسحوقاً تحت ضربة صاعقة . ثم انتهت المعركة بانتصار الألم . ولم يبق منها الا آثار بروق . أما اليسرى فقد استنفرت كل مالديها وكمنت للعدو . لقد تهيأت تماماً ، ولكن ليس الى الحد الذي يمكن أن يضمن انتصارها . لقد استنفدت حيويتها خلال هرج التهيؤ . لعلها كانت تدرك ان المعركة خاسرة . ولكنها لم تشأ أن تستسلم دون مقاومة . لقدفقدت على كل حال تعلقها فراحت تخبط خبطاً . وفي الوقت الذي أمتد فيه التيبس الى الرجل اليمنى ، وأمست هزيمة الجسد محققة . ظهرت مشكلة جديدة .

كان التعرق قد وصل الى ذروته ، فتعين على محمود أن يبذل جهداً خاصاً كي يظل ممسكاً بذراعي العربة ولاح له أن المحافظة على هاتين الذراعين بات حقيقاً أكثر من الألم . فقد بدأت يداه المتعرقتان تخونانه بدورهما .

وبينما كانت جميع الدلائل تشير الى أنه سينفض يده من هذا الأمر اتصل الحبل من جديد . « لماذا مات فهيم .. كان حماراً صغيراً ، ولكنه جيد.. هس.. هس يا فهيم ويمشي .. هس..هس يا فهيم ويسرع .. طريق الطابيات طريق صعب . لكني كنت سأدفعه من الخلف .. ليس فهيم اقوى من الثور ، غير أنه اكثر صبراً . والرجل يفضل الاثنين .. الستائر شيء حسن بلا ريب ، ولكن لامعنى لها في بيت بالايجار .. ليس ثمة طريق آخر غير طريق الطابيات » .

وتلاحقت انفاسه . وبات لهاثه أكثر تقطعاً . كان يقترب شيئاً فشيئاً من الفحيح ، لكنه رغم ذلك فقد تابع طريقه ، لأنه كان يدرك أن الرجل أكثر قدرة على احتمال الألم طالما هو قائم على قدميه ، وطالما هو مستمر في سيره الى الامام .

اللغـــة



كان في قديم الزمان ملك في مدينة اسمها مدينة الشمس . وكان في هذه المدينة ميدان عام انتصبت فيه تماثيل آلهة وحكماء الأيام الخوالي . واعمدة من رخام كي يعلق عليها اللصوص والقتلة والحواة . وكانت النسور قد عششت في هذا الميدان، لأنه لم يكن يخلو يوماً من المعلقين . ولكن رغم ذلك لم ينقص عدد القتلة ولا اللصوص ولا الحواة . فما كان من الملك الا أن ضمهم الى عسكره ليأمن شرهم ، حتى صار كل عسكر الملك بمرور الايام من الحواة واللصوص والقتلة .

وكانت هذه المدينة سعيدة، أو هكذا كانت تبدو على الأقل في بعض الأحيان . فعندما كان الملك يتفقد أحوال الرعية، سرعان ما كان المشعوذون والحواة يمرون بلمساتهم السحرية على المدينة ، فترفل بالوان قزحية . وتحمر ميـــاه الآبار فاذا هي خمر معتقة . وتنضر الوجوه وتضحك . فيهتف الملك عندئذ :

— أوه ما أسعد مدينتي !

فتتابع الحاشية وراءه :

— نعم ما اسعد مدينتنا !

- حقاً ليس في الأرض أسعد منها

- نعم ليس في الأرض أسعد منها .

أما تماثيل الحكماء التي كانوا لايستطيعون شيئاً حيال ابتساماتها الرزينة ، الساخرة من طرف خفي ، فقد كانوا يجنبون الملك رؤيتها . حتى اذا ما انتهت رحلة الملك خبت الألوان ، وفقدت الآبار سرها السحري، ومات الربيع المشتعل في العيون ، وتصاعدت الأنات ، متناغمة كثيفة ، طافية - كالضباب - فوق المملكة . ولكن رغم هذا كانت الأنات لاتبلغ آذان الملك ، لأن أسوار القصر عالية . ولو أصغى الملك يوماً لراعه ذلك الأنين الموصول ، ولكن الملوك لايصغون .

كان يجري الى الشرق من مدينة الشمس نهر يدعى نهر الحياة . هو في الصباح والمساء نهر من الدم ، وفي رابعة النهار دنانير فضية تلمع . وكان في انحاء المدينة لافتات حمراء دموية مكتوبة بخط ملكي أنيق ، موجه الى الشعب ، مثل: « انظروا الى الملك الف مرة ، والى نفوسكم مرة ». و « كل الدجاج والبيض للملك » و « كونوا سعداء مثل الملك » واخيرا « لا تغتسلوا في ماء النهر الا باذن الملك ». وكانت هناك لافتات أخرى كثيرة . ولم يكن الاغتسال محظورا في الماضي ، ولكن لكل علة سبب .

فقد حل ذات يوم بالمدينة رجل غريب . لقد جاء عبر النهر ووقف طويلا امام لافتات الملك العجيبة . لقد قرأ خطوطها

الدموية ومنذ ذلك اليوم صارت الحال غير الحال في مدينة الشمس:

ـ هناك على الشاطىء الآخر ينظر الناس الى نفوسهم مرة والى الملك مرة .

ـ وماذا بشأن الدجاج ؟

ـ للملك دجاجة وللفلاح دجاجة .

والبيض .

ـ آه . هناك لا يأكلون البيض . انهم يحتفظون به للنسل. كثير من البيض يعني مزيدا من الدجاج .

وفغروا افواههم . وهزوا رؤوسهم بالشك ، ولكنهم مع ذلك ازدادوا قربا من الغريب . كانوا لا يصدقون آذانهم . لقد كان ملكهم يحتفظ بالدجاج والبيض معا . وكان لا يترك لهم الا ما يكفي للتفريخ .

ـ حبذا لو أخذ الملك الدجاج وترك لنا البيض .

ـ لو فعل لأطعمت ابني المريض بيضة .

ـ لو كانت لدي بيضة لاطعمت زوجتي بعضها ، ومضغت أنا البعض الآخر . ان زوجتي حامل .

ـ أما أنا فسأفرخ منها دجاجا .

ـ صه . لو سمعكم الملك فسيعلقكم على اعمدة الرخام لتنقر عيونكم النسور .

ـ آه .

وتلفتوا حواليهم بذعر ، بينا تابع الغريب وهو ينظر الى مزقهم البالية .

ـ وفي الاصائل عندما ينتهي الناس من اعمالهم، يرتدون ثيابا نظيفة ويتزاورون فيا بينهم . وعلى مصطبات بيوتهم ، أو فوق الاسطحة ـ وهم يحشون غلايينهم ـ يتحدثون في أمور الزواج والموت والسدود والولادة والقحط والخصب والمرض .

وفكروا جميعاً في وقت واحد .

ـ ما أحلى الحياة هناك !

ـ أما في الاعياد ؟

ـ أما في الاعياد ؟

فيلبسون حللا زاهية وينحرون الاضاحي .

فرددوا مشدوهين ، وهم يتحسسون معدهم الخاوية .

ـ اضاحي !

ـ نعم . ان الناس هناك لا يموتون من الجوع أو المرض .. انهم يموتون بفعل السن .

وتناول احدهم عودا جـــافا ، قسمه نصفين ، راح يحك جلده بنصف ، بينا قدم النصف الثاني الى آخر فحذا حذوه .

فقال الغريب للرجل الاول دهشا :

ـ ليس ما يحك الجلد كالظفر .

فقال الرجل بخوف :

ـ ما حاجتي الى الاظـافر ؟ انـ هذا العود اليابس يفي بالغرض .

وهمس الثاني بعفوية :

نحن لا نملك اظافر .

واستفسر الغريب عن السبب فران عليهم الوجوم أولا ، ثم الخوف .

ـ في بلاد العالم يحتفظ الناس باظافرهم . انها ملكية احترمتها الاديان السماوية . وكذلك المشرعون . من يدري فقد يجد الانسان نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام الغابة .

وما زال الغريب بهم حتى فهم بعد حرص شديد ان سجينا فر ذات يوم من سجنه بعد أن فتح ثغرة في جـدار السجن بواسطة ظفره . فقلع الملك منذ ذلك اليوم أظافر الرعية .

ـ ان ملككم ظالم . .

وحدثهم عن الحياة وراء النهر . الطرقات النظيفة ، الاناشيد ، الالوان ، الأزهار ، الصحة ، القمح ، الاحذية ، المراعي .

ـ نعم ان مراوح الطواحين لا تكل .

وتقلقل الفلاحون . كان يتنازعهم شعوران . كانوا في صراع بين الفرار من هذا الغريب والانجذاب اليه .

ـ كالامطار بين الرمال ، كذلك المحبة في غير موضعها . .
انه يتكلم أفضل من كل حكمائهم وآلهتهم السابقـين . لقد

مرق من جراحهم ودخل الى قلوبهم فأشاع فيها الفوضى والاضطراب.

ـ ان الذين يموتون منكم ، اكثر ممن يولدون ، وعرقكم مهدد بالانقراض ..

فأمنوا برؤوسهم

ـ انهم هناك يشقون الارض بالمحراث ، وعجلاتهم لا تصدأ.

وحدثوا نفوسهم :

ـ بينما نحن نحرثها بايدينا ، وتجارتنا بائرة ، ولا نجد قوت يومنا ..

ـ ان بساتينهم مثقلة ، وكلابهم ملت من التثاؤب على عتبات الدور ، وخلف الاسيجة .

ـ اما نحن فكلنا نعوى .

ـ ان حكماءكم يجهلون التقاويم ، وتعاقب الليل والنهار . يجهلون تناوب الفصول : الربيع ، الصيف ، الخريف ، والشتاء ، بينما جعب الصغار هناك واكياسهم الملونة ملأى بالشموس .

وانحجب نور الشمس فجأة ، فتطلعوا الى الاعالي : ان اسرابا هائلة من النسور تهدر فوقهم وتخفي دونهم وجه السماء .

وما ان أقبل المساء ، حتى كان الغريب ومن كان برفقته من الفلاحين ، قد علقوا على أعمدة الرخام ، وعن يمينهم وعن شمالهم تماثيل آلهة وحكماء الايام الخوالي بيسماتهم الرزينة وغضبهم الوقور . في حين كانت اسراب النسور تحوم منذ زمن فوقهم وحواليهم .وقد

حسب الناس أنها تقوم بهذه المناورات تمهيدا للانقضاض عليهم .

ولكن مضى وقت طويل دون أن تفعل .

ـ ما بال النسور ؟ ..

ـ لماذا تلوى اعناقها ؟

ـ لماذا لاتمزق مناقيرها الاجساد المعلقة ؟.

ـ وصعق الملك وحاشيته وراعهم الحدث الغريب . ولم تلبث أروقة القصر ان خرجت عن وقارها الملكي . وراحت تستشير الحكماء ، وتبحث في بطون الكتب بين ضباب المباخر . وروعت النسور أكثر من غيرها فازداد صراخها مع ازدياد عجزها . ولم يكن الشعب في تلك اللحظة أقل روعاً .

ـ ماالامر ؟

ـ ماذا اصاب النسور ؟

ـ ماذا أعجزها ؟

ـ لعلها معجزة ؟

ـ انها معجزة !

ـ نعم انها السماء أخيراً .

وخف الناس فعفروا وجوههم بالتراب ، تقربا للسماء ، وقدموا لها النذور المنسية . ونبشوا صررهم ، فأحرقوا لها مخزون بخورهم . ولكن السماء رفضت نذورهم ، وأرسلت ريحاً صرصراً فأطفأت مجامر بخورهم . وانكفأ الناس فجزوا شعورهم حزنا وغما .

ولكنهم لم يقنطوا فأعادوا تعمير مجامرهم . وقد حسبوا ان السماء رفضتها لنقص في ايمانهم . ولكن حدث في اليوم التالي نفس ماحدث في اليوم الأول . بل ازدادت نقمة السماء واشتدت . فقد سيّرت عليهم أسراباً من الحشرات الطائرة غطت عين الشمس. راحت تطن فوق رؤوسهم وتقرص اجسادهم ، كأنها تريد بذلك تذكيرهم بقربان متأخر ، أو لتحيي فيهم شعوراً ميتاً . وقد دامت هذه الحال ستة أيام وست ليال . في الوقت الذي كانت الريح تحمل فيه كلمات الغريب العجيبة وتنشرها فيتنفسها الناس مع الهواء والشمس .

وفي اليوم السابع ذهبوا لزيارة احبائهم . وكانوا قد نسوهم في غمرة حزنهم وتملقهم للسماء . فقرروا ان يسألوهم المشورة بعد أن أعيتهم الحيل في كسب رضى الآلهة . قالوا :

ـ نحن اشقياء

فرددت الجبال والوديان وراءهم :

ـ أشقياء .. أشقياء .. أشقياء

وسرعان ماذبلت الأزهار ، فمالت أعرافها ، واكفهرت منها الالوان . وسرعان مانبتت الاشواك حول القبور

ـ أي أباءنا واجدادنا ! أي احباءنا ! لقد غضبت علينا الآلهة ومانظنكم عنا راضين ، فما العمل ؟

ـ ماالعمل ؟ ماالعمل ؟ ماالعمل ؟

وجاءهم صوت احبائهم من بعيد طاوياً السهول وذرى

الجبال والوديان والانهار . صوت عميق هادر كأنه ينبثـــق من قلب الزمن :

ـ ان ملكـكم ظالم

وتذكروا في الحال الدجاج ، الاحذية ، الدروب النظيفة ، الالوان ، والنجوم . وكل ماهو ممكن ، وقابل للامـــكان وراء النهر . قالوا :

ـ ان ملكنا ظالم . ونحن لانملك قدرة ، ولا اظافر

ـ أظافر

وحملت اليهم الريح أنينا موصولا متسق النغمات كجدول دائم الجريان ، ينبعث من الاجساد المدفونة تحت أحجار القصور من الاقبية المظلمة ، من الخرائب ، من الأكواخ ، من الأفواه الفاغرة ، والظهور المحنية تحت لهب الشمس . ولطم الناس وجوههم وهيأوا قواريرهم

ـ ان قوارير الدموع لن تجدي حتى ، لو استنفدتم صلصال الارض ، ونذوركم باطلة . .

وصعقتهم لعنة الاحياء

ـ ان الارض قد حبلت بفساد الملك .

وتملل شيء مافي نفوسهم ، هناك تحت الانقاض المتراكمة عبر الاجيال السالفة . وافرخت كلمات الغريب : « ليس الاطفال وراء النهر هدفاً للصقور ». وبكوا على كل الصغار الذين مزقتهم مخالب

بواشق الصيد الناشئة « الجوارح تتدرب بصغار الطيور هناك . أما الاطفال فطيور الله على الارض ».

ـ ياويلتاماذا نفعل ونحن لانملك قدرة ولاأظافر؟!. لاقدرة ولااظافر ، والارض تشكو من فساد الملك .

وأسفوا على كل النذور والقرابين والدجاج المنهوب والبخور والخمور والدموع المسفوحة تحت أقدام الآلهة والصلوات الحارة لخلود حياة ملك شرير

ـ الهم مجلبة للضعف ، ولايخلف الحزن الايأساً

ـ ماذا نفعل ونحن لانملك مذراة ولا فأساً ؟ وكل جنود الملك من القتلة واللصوص

ـ لصوص . لصوص . لصوص

ـ أي احباءنا ! أي حكماءنا . فليحرم عليناالطعام .فليحرم علينا الشراب قبل أن ترضى عنا الآلهة .

فقال الحكماء :

ـ صوم بلامعنى ، شأنه شأن صلاة بلا هدف . ان الآلهة لن تقبل نذوركم حتى يقضي الشر .

وبرقت في خواطرهم فكرة

ـ وكيف يقضي الشر ؟

فقال الحكماء ببساطة :

ـ لكي يوضع حد للموت ينبغي أن يقابل بالموت ، فليس

مايقهر الموت كالاقدام عليه . ومادمتم لاتملكون مذاري ولافؤوسا ولا أظافر .. مادمتم لا تملكون جنود الملك ، لان كل جنوده من القتلة واللصوص ، فأنتم على الأقل تملكون ذواتكم ..

وخيل اليهم وعلى نحو ضبابي انهم اهتدوا الى شواهد الطريق

ـ أما اجسادكم ففانية . وليس مايشرف الانسان ويضعه في مكانه الصحيح كانتصاره على الجسد

* * *

وعندما جاء الملتزمون في الايام التالية لتحصيل الضرائب ، فوجئوا بأمر غريب . فقد رأوا الموتى ومن هم في طريقهم للموت اينما حلوا . فعادوا مذعورين الى الملك

ـ المرض . المرض

ـ الطاعون في كل مكان

فقال الملك بلامبالاة :

ـ وماذا في الأمر؟ فليمت بعضهم..انهم كثار يستنفدون الغلات .. كثار حتى انني فكرت ان اصطنع بعض الحروب المحلية .

وقالت الحاشية :

ـ وماذا يهم ؟ بإمكانهم ان ينسلوا غيرهم

في حين هز الحكماء رؤوسهم وابتسموا بسخرية ، كأنهم يقولون :

ـ انها النهاية .

وفي مرة اخرى قيل للملك :

ـ ان الطاعون قد استشرى في المملكة والناس ينفقون بكثرة .

وقال آخر :

ـ انه مرض غريب . لعله مرض فقدان الشهية

فسأل الملك غاضباً ، وكانت أعصابه قد وهنت في الأيام الأخيرة ، وبات ينفعل لأتفه الاسباب ، لقد استيقظ شك الملوك وهجر مناطقه البعيدة :

ـ ماهذا المرض الملعون ؟ فليأخذكم الجحيم جميعاً

ـ ان المريض يرفض الطعام والشراب والنوم .يرفض حتى الكلام .. ربما كان مرض فقدان الرغبة في أي شيء

فقال الملك:

ـ لماذا لايأكلون ؟ لقد تركنا لهم سوق الذرة والحنطة والشعير .

فقال الحكماء :

ـ لن يأكلوا بعد .

ـ لماذا لايأكلون ؟ اجعلوهم يأكلوا . أي مرهم بأن يأكلوا . اعطوهم العقاقير. اني آمرهم بأن يتناولوا العقاقير.

قال الحكماء :

ـ ان مابهم ليس من المرض في شيء ، ان حالهم يستعصي على كل عقاقير الارض ..

وتوقف الحكماءقليلا ونظر بعضهم الى بعض ، ثم أدلوابهذه الحقيقة :

ـ انهم ليسوا مرضى على الاطلاق ، انهم صائمون ، وقديماً كان الحكماء يلجأون اليه ، انه أضعف انواع المقاومة

فقال الملك :

ـ ولكن ما معنى هذا ؟ لماذا يريدون المقاومة ؟ ماذا يبغون من المقاومة ؟ ان مدينة الشمس أسعد مدينة في الدنيا .

ـ ربما كان ذلك في الماضي . ان مدينة الشمس أتعس مدينة في الدنيا .

فقال أحد أفراد الحاشية .

ـ ان هذا الزمن العاق لم يعد يصلح للملوك .

فرد الحكماء :

ـ بل إن الملوك ما عادوا يصلحون لهذا الزمن. ان نظرتهم هي هي لم تتغير .

واقترح الحكماء على الملك ان يتفقد احوال المملكة .

حينما نزل الملك الى الشعب . رأى مدينته على حقيقتها . كان مفعول السحرة والمشعوذين على الاشياء قد بطل . واعترضه البؤس في كل انحاء المملكة : الدروب القذرة ، الجحور المظلمة ، الذباب ،

الجوع ، العري ، المرض ، الارض القاحلة والموت في كل مكان . وكان الملك يصرخ مستنكرا : « هذا محال . انها ليست مدينتي . ان مدينتي هي مدينة الشمس . اما هذه المدينة فملعونة » . ولكن اللافتات الملكية الحمراء كانت في كل ناحية . « انظروا الى الملك ألف مرة قبل أن تنظروا الى نفوسكم مرة » و « كل الدجاج والبيض للملك » .. ولم يجد الملك عندئذ مايقوله سوى ان يردد بذهول :

ـ كيف ؟ منذ متى ؟ ..

فقال افراد الحاشية :

ـ لقد افسد الغريب الشعب . فقد قال أشياء عجيبة .. شريرة . ينبغي أن نقيم السدود في وجـــه الغرباء .. الموت للغرباء الاشرار

وقال الحكماء :

ـ لقد فات الاوان . وعبثا تقيمون السدود . فقد وجد النهر طريقه .

فقال الملك :

ـ هراء . ان تحويل الانهار أمر شائع في التاريخ . انزعوا هذه اللافتات . هيا . بدلوها . اطعموهم . اعطوهم دجاجاً ولبناً وعسلا . ادخلوهم الى بيوت الخمر . افتحوا لهم مخازن الميرة . اني آمرهم بأن يغرفوا ما يشاؤون من مخازن الميرة .

فقال الحكماء :

ـ هذا محال . فقد خدعهم جد جدك مرة

وحاول أفراد الحاشية اغراء الشعب . فاستوقفوا بعضهم :

ـ كلوا . نطلب اليكم أن تأكلوا .. اننا نأمركم باسم الملك ان تأكلوا . كلوا دجاجا فانتم لم تذوقوه يوما. وحضرت في الحال اطباق الطعام الملكية ، غير ان افراد الشعب لم يعيروها أدنى اهتمام .

ـ اشربوا واسكروا من هذه الخمرة . انها من أجود كروم مدينة الشمس وعمرها ألف عام

ولكن الشعب ظل على حاله . وبدا لهم في لحظة من اللحظات ان كل محاولة معه لثنيه عن عزمه ضرب من العبث . ولاحظ الملك أية حياة شقية يعيشها شعبه . كان الموتى في كل مكان . وكانت التجارة بائرة ، والمخازن قد هجرها اصحابها ، فلاشراء ولابيع . واما الاحياء فبدوا كأنما يمشون بسيقان خشبية . كان بعضهم يحمل الموتى الى جهات مجهولة . والبعض الآخر يواسي من كانوا في النزع الأخير . كان عملهم يجري بصمت الشعائر في المعابد . كانوا يتفاهمون باشارات غريبة . وكان يستحيل على الآخرين فهم هـذه الحركات . لقد أمسوا يتكلمون لغة أخرى .

واحتار الملك فيما يفعل فأطلق سهما أخيرا . أمر بالهجوم عله يبعث فيهم غريزة العراك . واندفع الجند في تشكيلات

هندسية رائعة مثلثات ومربعات على نفخات الابواق المنذرة وضربات الطبول القارعة وقد صوبوا الرماح وسددوا الحراب . غير أن الناس تلقوا الطعنات بلا مقاومة ، ولم تصدر عن أحدهم آهة توجع ، كأن ذلك من مستلزمات الدور الذي يلعبون . حتى ان جنود الملك اصابتهم الدهشة وكادوا ينقلبون في اللحظات الاولى. وتساقط القتلى كما تتساقط الاوراق في فصل الخريف . في حين هز الحكماء رؤوسهم كأنهم يقولون :

ـ عبثاتحاولون

وأمر الملك بوقف القتال . فقد بداله انه يقبض على حفنة من الرمـال . كلما ازداد عليها ضغطا ازداد عجزا عن امساكها . وغمغم :

ـ لافائدة ولكن كيف لم يتسن لي معرفة ذلك .

قال الحكماء :

ـ البحر عميق واللؤلؤة في المحارة

وأعطى الملك اشارة الانسحاب ثم بدىء المسير . وكان الملك لايفتأ يردد بذهول :

ـ نعم لافائدة . لابد من الرحيل

وخشي افراد الحاشية على نفوذهم . وقالوا فيما بينهم :

ـ اذا رحل الملك ضاع كل شيء

وحاولوا منعه عن الرحيل . فرفض . واستبد الغضب بأحد افراد الحاشية فقتله . فما كان من عسكر الملك الا أن هجموا على افراد الحاشية واتباعهم فقتل بعضهم بعضا . في حين كانت اسراب النسور التي كانت تلاحقهم طوال الطريق ترسل صرخات حادة وهي تقترب من الجثث المنثورة على الارض الحمراء .

قال احد تلامذة الحكماء باعجاب :

ـ لقد كان نبيلا على الاقل عندما قرر الرحيل

فقال حكيم وهو يسرح الطرف عبر الافق :

ـ بل كان مثالا للانانية . .

كانت الشمس قد مالت وراء التلال ، واصطبغ نهر الحياة بلون الدم .

ـ لقد عرف انه لوكان ثمة أمل في نجاة فرد واحد لآثر البقاء .

واستغرب التلميذ . فاستطرد حكيم ثان :

ـ لقد أدرك انه لورفض الرحيل لنفق آخر فرد من الرعية.

وقال حكيم آخر :

ـ كان يخشى أن ينقرض الشعب .

فقال التلميذ :

ـ واذن ؟

ـ ان انقراض الشعب يعني لديه انقراض اسرته من التاريخ .. لقد كان ملكا .. ايه .. ان الملوك لايتغيرون .

وحينما زار النـــاس قبور احبائهم في اليوم التالي ، لاحظوا أن الاشواك السوداء قد اختفت تماما ، بينما تفتحت الازاهير حول القبور ، فأدركوا عندئذ ، وعندئذٍ فقط ، ان الآلهة رضيت عنهم .

متاعبُ "رتيبة"

كانت في الثامنة أو التاسعة من عمرها . شعرهـا أشقر ، عيناها زرقاوان واسعتان ، ترتدي فستاناً قصيراً كأنمـا خيط لفتاة أصغر سناً . أما بشرتها فمن لون شعرها أو تـكاد .

إنها تقف في الأصباح قرب مدرسة خاصة للراهبات،شعرها محزوم عندالقحف بشريط رفيـع من المطاط وسائب عندالأطراف. وجهها مجلو مشرق كأنها تنتظر احدى لداتها لتلجا معاً بوابة المدرسة. بل كانت تبدو على أتم الاستعداد لتفعل ذلك وحدها بعد لمستين أو ثلاث تمران مروراً سريعاً عليها . ان الناظر اليها يحسب ، فيما لو غض الطرف عن بعض الاعتبارات الاخرى، انها ابنةتاجر ، أو ملا ّك ، أو صاحب مشاريـع . رجل ما ذو شأن فارغ البال عن معاش يومه . حتى ان المرء ليتوقع اذا ما اتخذت الامور هذا المجرى الطبيعي ان يـكون لهـا ايضاً اسم ما عصري مبتـكر . هالة ، أو شيء من هذا القبيل . اسم يدل على الاهتمام والتعلق .

من الممكن ان يحسب المرء أي شيء ، ومع ذلك يبقى الواقع شيئاً آخر . كان اسمها رتيبة لكنه تحول بفعـل التحبب أو السخط الى رتوب . ولم يـكن أبوها تاجراً ، ولا ملا ّكاً ، ولا أي شيء من هذه الأشياء المرموقة ، بل صياداً . والحق انه كان يشتغل

في الصيد أيام المواسم ، وفي السكر حين لا يكون ثمة صيد . أما الآن فإنه لا يشتغل الا في السكر . طبعاً كان ينبغي الا يسلك هذه الطريق مهما كانت ظروفه قاسية ، وهو أب لخمسة أولاد ، ومع ذلك فقد سلكها . حينئذ لم يكن من سبيل أمام الأم بعد أن يئست من ارجاع الاب الى جادة الصواب سوى ان تتحرك للعمل.

لقد فحصت اقفاص الصيد وقلبتها على مختلف جوانبها لترى مقدار العطب فيها . كانت خربــــة بعض الشيء ، وصدئة من قلة الاستعمال . وسرعان ما أصلحتها ببعض الأسلاك المتبقية من الماضي. ثم زودتها بالطعم وقذفت بها الى اليم قريباً من الشاطىء .

وقامت بعد ذلك بتوزيع المسؤوليات على أفراد العائلة . استخدمت محمداً وهو صبي في الثانية عشرة من العمر في دكان حداد وطلبت من المعلم الا يدخر وسعاً في شأن تعليمه . وقالت له: « اللحم لك والعظم لي » . بالاضافة الى تكليفه بالبحث عن الخبز اليابس في في ذهابه وإيابه لتعمير الاقفاص بالطعوم .

أما رتوب فكان ينبغي عليهـا ان تبيع السمك المصيد في الأمكنة المجاورة . وأضافت الأم بعد مدة الى مسؤولياتهـا مهمة غسل ثياب الناس . في حين لم يكلف الأولاد الثلاثة الباقون بشيء ، لأنهم في الواقع أصغر من أن يكلفوا بأي عمل .

حدث ذلك في مواسم الصيد أيام الصيف والخريف . أمـا الآن فليس ثمة من صيد . وان رتوب تبيع اللحظة الكعك والجوزية

على باب مدرسة خاصة للراهبات في صينية من النحاس .

لكن رتوب بردانة الآن ، والتلميذات في الداخل . بينما راح فكرها يتساءل في قلق: متى تخرج التلميذات الى الفرصة ؟

متى يخرجن ؟ عندما يقرع الجرس دون ريب ورتوب تعرف ذلك . لكنها تشعر بالوحدة الآن علاوة على انها بردانة . لو يمر الآن بعض عتالة المرفأ ، لكان من الممكن ان يبتاعوا بضاعتها .

ان من شأنهم ان يمشوا جماعات . جماعة واحـــدة منهم تكفيها . كعكة من هنا . قطعة جوزية من هناك . واذا بضاعتها بعد فترة أثر بعد عين .

وتدير رأسها ناحية اليمين . لا عابر . اذن فلتدر رأسها ناحية اليسار . لا أحد أيضاً .

لا أحد الا هي بجانب الجدار ، وبضاعتها في صينية من النحاس على الأرض . حتى أن الريح الصافرة التي كانت تهب من الشرق وتعبر الشارع باتجاه البحر ، كانت تستغرب من وجود هذه الطفلة في الطريق في وقت لطى الناس فيه قرب مواقد النار .

يا لله ما أحلى ان يكون المرء جالساً قرب منقـــل عامر ، وساقاه مكسوتان بجرابين سميكين أسودين كجوارب هاتيك البنات ! واحلى من ذلك سروال كحلي طويل حتى الكعبين . ولكن من أين لها مثل ذلك السروال الطويل ! آه لو كان لديها واحد مثله .

بيد أن رتوب الآن في الشارع وريح الشرق الباردة تصفع ساقيها وتدور حولها ، وترتفع لتنفخ فستانها ، ثم تتغلغل فيما بين فخذيها وطرفي سروالها الداخلي فيبرد أسفل بطنها وبطنها وظاهر ساعديها وظهرها .

لو كان هناك شيء تحتمي به ويرد عنها الريح كسيارة الأمس . ولكن لا يوجد شيء اليوم . وفراغ العتبة الذي اعتادت ان تحشر نفسها فيه، فيما بين باب المدرسة الحديدي الاسود وطرف الجدار في الزاوية ، يبدو لها أضيق من ان يتسع لجسمها . كل شيء مختلف اليوم . انها تقف منذ الساعة السابعة وبضاعتها لم ينفق الا جزء منها ، والبرد قارس . وكنزة الصوف الحمراء في الغسيل . ليت أمها لم تخلعها هذا الصباح عنها . لماذا يغسل الناس في البرد ؟ لكم هي مسرورة انها ليست كبيرة لتقوم بغسل الثياب .

ودارت على نفسها نصف استدارة . ونظرت من شق فيما بين طرف الجدار والباب الحديدي المثبت فيه برزات طويلة بعض الشيء . كان ذلك الشق من السعة بحيث يسمح لها بأن تمد منه بصرها الى الساحة ، كما تمرر منه بضاعتها الى زبائنها .

وكانت وهي تنظر من الشق اشبه بخارجة على القانون تتحين الفرص لتبيع اشياء محرمة . وكم تعرضت هذه المهربة الصغيرة حقاً الى زجر بعض الراهبات بحجة ان كعكها وحلواها مكشوفة ليس يحفظها غطاء على الاقل .

وعادت الى وقفتها السابقة بعد ان ارتد بصرها خاسراً . كانت الساحة خالية تماماً . ثم عجبت لماذا لم يأت اخوها حامد ، أو أمها . يالطيف كم هي جائعة ! ولكن امهـا مشغولة اليوم بالغسيل ، فاستبعدت زيارتها . اما اخوها فلا شك انه يداعب أخته الصغيرة الآن . وفكرت ان تنتقل الى الطوار الثاني .

انها تود ان تلقي نظرة من هناك على باب البيت على طرف الشارع ، علها تصادف احد افراد العائلة داخلاً او خارجاً لشأن من الشؤون فتذكره بنفسها . كان البيت قائماً في الساحة المقابلة للشارع الذي ينعطف يميناً الى الكورنيش ، ويساراً الى الميناء ،بين جملة البيوت القديمة . غير ان الريح شاءت ان تندفع في تلك اللحظة باردة دافعة امامها بعض الورق او الاشياء الاخرى التي صادفتها في طريقها ، فذكرتها بما يمكن ان تتعرض له في مغامرتها فامتنعت عن الذهاب ، واكتفت من ذلك بالتمني : لومر حامد فسأقول له: « هيا ياحامد واجلب لي بعض الخبز والزيتون ولا تتأخر » . ثم فكرت انها ستبصق على كعبه كما تفعل امها حين تبعث بهـــا الى السوق لشراء حاجة ، لتزيد من عجلته فلا يتهاون .

وافلت منها خيالها . كانت تعرف ان أخاها لن يعطي الأمر مايلزم من اهمية ، فلحقت به الى البيت . كان الدفء اول ماصادفها ولفها في غلالة لطيفة حانية . ولم تسمح له بان يعطلها عن قصدها . كانت جائعة تماماً . ثم ينبغي ان ترجع الى بضاعتها التي

تركتها على الطريق . ومضت الى الوعاء الذي يحفظ فيه الخبز ، وازاحت عنه غطاء من الخشب ذي حواف . فانزاح فكرها معه . ومشت في الطريق المؤدية الى بوابة المرفأ حافية القدمين على رأسها غطاء من خشب فيه سمك لاتزال فيه رائحة البحر فتملأ انفهـا « سمك .. سمك طري ياسمك » . الجو حار تماماً . والارض ساخنة حتى لتحس سخونتها الآن في بطنها وصدغيها .

لكنها سخونة كاذبة . رتوب أنت بردانة حتىالعظم .. هيا لزّي .. لزّي الى الزاوية . اسندي قحف رأسك الى باب الحديد .. ولكن الحديد بارد .. ولكن الريح قرصت انفك ايضاً .

وتراجعت رتوب الى الحد الذي لاتستطيع بعده شيئاً . حتى بات ثقلها على اصابعها اكثر منه على بقية قدميها . وشدت يديها ممدوتين على جنبيها . كانت اشبه بصورة حلوة في ارضية غيرمناسبة . زهرة ذهبية في اطار اسود . لقد اخفت كل ماتستطيع ان تخفيه من جسمها عن مسرى الريح الشرقية . لكن الريح الشرقيـة كانت تندفع في هذه اللحظة لا من مكان معين . من فوق ، من الشمال والغرب حتى من ورائها، من الشق الذي تتعامل من خلاله. والواقع كان ثمة صراع بين الريح الشرقية ، والريح التي تحاول ان تجد لنفسها طريقاً من الغرب . وقد استطاعت الارياح الغربية بعد كر وفر دام ثلاثة ايام من ان تلامس قدماها الشاطىء منذ قليل . وهدأت التموجات الخفيفة الـتي كانت الريح الشرقية

تحدثها على الشاطىء حتى صارت غصونا . وران على البحر سكون ظاهري مؤقت حتى تتجلى المعركة . وتوقفت الغيوم في الاعالي كتلة قطن قذر . اما رؤوس الاشجار في الحديقة المجاورة ، فكانت تخفق في اكثر من اتجاه اللحظة بعد اللحظة . كان هذا الصراع يجري في غفلة من رتوب ، وإن كان غير بعيد عنها . فقد اندفعت على حين غرة فلول مذعورة من ريح الشرق ، واختبأت في فستان رتوب ، فأحدثت في جريها هرجاً ، واضطرب الفستان فانتفخ .

وخطر لها ان تبدل مكانها . لم يعد مكانا آمناً من الريح والبرد . لكن اين تمضي ؟ الشارع كله مكشوف .. لا سيارة ولا عتبة بيت بينما البرد يزداد شدة . آه لو لم تخلع عنها امها الكنزة الحمراء هذا الصباح للغسيل . انها لم تشعر في حياتها بمثل هذا البرد . فشفتاها زرقاوان . وارنبة انفها حمراء . واطراف اصابعها تؤلمها . يالله ! انها لم تعد تشعر أن لها اصابع . وجسمها كله يرتجف وعن لها ان تمضي الى البيت .

ولكن كيف تمضي الى البيت وبضاعتها لم تنفق . وماذا بشأن امها ؟ لتذهب اذا كانت لاتريد ان تبيت ليلتها دون طعام . هيا لتفعل اذا شفي كتفها من عصا البارحة . وشيء آخر لابد ان تحسب له رتوب حسابه . ذلك ان امها كانت غاضبة بسبب شجار حدث بينها وبين زوجها ليلة البارحة .

كان ذالك في منتصف الليل ، حين دخل الزوج مخموراً .
كان لابد أن تقول له الزوجة شيئاً بعد غياب دام عشرة ايام . إذ ليس من المعقول أن تفتح له صدرها وتقول : اهلاً بزوجي العزيز، بل الذي حصل هو العكس . ومما قالته : هيا اغرب عن وجهي . انت لاتعرف هذا البيت الا عند حاجتك . وطبعاً هو لم يترك البيت بالتي هي احسن . كان صياداً يعرف كيف يتصدى للعاصفة في اللحظة المناسبة .

إن ماجرى ليلة البارحة لايزال حياً في ذهن رتوب . وقد زادت الأم الطين بلة حين اضافت صباح اليوم معقبة على الحادثة، انها ستترك البيت والأولاد ، لأنها - وهي المرأة - لاتستطيع ان تسد حاجات بيت فيه ستة افواه . ورتوب تشفق الآن أن تنفذ الأم وعيدها . فيالشقائها ان فعلت .

لتبحث اذن عن وسيلة تقي بها نفسها هذا البرد حتى يدق ذلك الجرس الملعون .

وانحنت رتوب تحمل صينية الكعك والحلوى ، فاستغفلها الهواء وأطار شعرها ، ورد فستانها الى ظهرها ، فبان سروالها . انه سروال قصير ازرق . هاهي ذي الصينية على رأسها . لكن الريح تريد ان تقلبها فماذا تفعل ؟ لتتشبث بها أولاً بأول . ثم لتدبر أمرها بعد ذلك .

وتحركت باتجاه شجرة ازدرخت لتتخذ من جذعها واقياً .

غير أن الريح الشرقية صفعت صينيتهـــا فتقلقلت الى الوراء ، وطارت كعكة ، او كعكتان . ثم استدارت لتسير في الاتجاه المعاكس . بيد أن الريح كانت لها بالمرصاد ايضاً . ودفعت الصينية من الخلف ، فانحنت الى الأمام وسقطت كعكة ، كعكتان ، ثلاثة .

وتوقفت ،يالحيرتها ! واعملت ذهنها . إذ ليس من الحكمة أن تظل واقفة في مهب الريح والطبق على رأسها .

هنالك باب ثان للراهبات والمعلمات فلماذا لاتلجه . انه باب حديدي أصغر من باب التلميذات ، احدى درفتيه مفتوحة دائماً . ووراءه مباشرة فسحة طولانية تشمل ثلاثة امتار في عشرة يمناً ويساراً من الباب .

هيا . اتمضي اذن بحملها . ان الفسحة ستقدم لها مكاناً آمناً . وحقاً كان الهواء وراء باب المعلمات يكاد يكون معدوماً . كانت الفسحة محوطة من اكثر الجهات . فمن الشمال بناء المدرسة، ومن الشرق والجنوب جداران عاليان . ناهيك عن بعض الاشجار في طرف الفسحة الشرقي .

وانزلت رتوب الصينية عن رأسها . إن عليها ان تسترجع الكعكات التي بعثرها الهواء . ما كادت تفعل فتخرج الى الشارع، حتى كان الهواء في انتظارها وأطار فستانها عالياً ففضح نحول نصفها السفلي .

وراحت بعد ذلك تتحرك في دائرة ، ثم قطعت هذه الدائرة واخذت تذرع أرض الفسحة جيئة وذهابا . ثم على صورة غير معينة كما تقودها قدماها او كما أوحى اليها البرد أن تفعل .

والواقع أنها ما كادت تتخلص من الريح التي كانت مشكلة تفاديه تشغل معظم تفكيرها ، حتى وجدت نفسها وجهاً لوجه امام البرد . كان احساسها به يتفاقم. وهكذا شرعت تتحرك كيفما اتفق لتبعث الدفء في أوصالها .

وتسلل الجوع من معدتها الى خيالها . يا اله السماء كيف نسوها؟! الم يفطروا هم في البيت ؟؟ أمها وأخوتها . كلهم . فماذا لو أكلت بدورها كعكة . ؟.

ان البحر القريب لن يطغي في الليل ويبلغ الدار . ولن يتسلل الغول من كوة البيت فيخطفها من فراشها . ولن تجثم ام مرزوق الجارة العجوز على صدرها وتخمد أنفاسها . لن يحدث شيء من ذلك على الاطلاق ، سوى ان امها ستغضب ويجن جنونها: «بثمن كعكة تشترين رغيف خبز يابنت الكلب . ان شاء الله سم» . وهات ياضرب .

وقد فعلت رتوب ذلك مرة . في ذلك اليوم المشؤوم .
وأشاحت بوجهها عن صينية الكعك . ولكن كعكة معينة حمراء ولامعة لاحقتها . وبدأ خيالها يقضمها . قضمة وراء قضمة .

والسمسم ينسحق تحت أضراسها محمصا دسما ، واللعاب السائل يسد حلقها .

« متى يدق الجرس » ، تساءلت . كانت خائفة من نفسها . لم يعد الجوع في معدتها ، بل في رأسها . كانت الكعكة الذهبية . المدورة المتألقة كنجم ، المرقشة بالسمسم المحمص قد تسللت اليه وجعلت تنمو فيه ، حتى ملكت خيالها . وتلقت المعدة إشارة بالعمل فقرقرت ، ثم شرعت تقرصها .

صبراً ، صبراً رتوب . عما قليل تخرج البنات الى الفرصة ، وتنفق بضاعتك فتعودين الى البيت وتأكلين ملء بطنك .

لكن الجرس لاتبدو عليه أدنى رغبة في الحركة في هـذا الجو القارس . ورتوب بردانة حتى الموت . لا بـل جوعانة . يالله أيهما كان أقسى عليها من الآخر . أكلاهما وحش لايرحم ؟

وتألقت عيناها استعداداً لمشروع بكاء . لكنها بدلاً من ان تفعل ذلك ، إنطلق لسانها على حين غرة وقذف «يلعن أبوكم » .

من خـصّت بهذه اللعنة ؟ الله أعلم . ولعلها شملت أباهـا وأمها واخوتها وبنات المدرسة والجرس والناس جميعاً .

ونفخت رتوب في يديها ووضعتهما تحت ابطيهـا . ودارت دورة أو اثنتين ، ثم حانت منها التفاتة الى الكعكات بنصف إرادة . ولكن كعكة واحدة انفردت عن الاخريات بتألق خاص ، وتدوير

خاص ، وترقيش خاص . وتحركت حركة أخرى . ثم عـــادت وقرفصت ، وإنشمر فستانها عالياً ، فبان ساقاها وفخذاها .

ومدت يداً مشفقة ، فلمست الكعكة الذهبية بحنو بالغ .

ثم تناولت سمسمة . سمسمة ليس غير . محروقة بعض الشيء . وإلتقطتها بلسانها باذىء ذي بدء . ثم سحقتها فأحست ألماً في أسنانها وأضراسها من فرط اللذة . وإمتلأ فمها لعاباً . كان الوحش قد فتح شـــدقيه وحطم الحواجز . لقد أهاجته سمسمة .

وغابت عينا رتوب في سحابة بنفسجية . وأحست دواراً . وامحى الكل . فإلتقطت الكعكة ، وبدأت تلتهمها .

وحينما فرغت منها . أغرتها كعكة ثانيـة . كان الوحش يريد ان يقتطع رغيفاً آخر من قوت العائلة . لكنها أسكتته قائلة: يكفي واحدة . لقد أمسى في مقدورها ان تقف الآن في وجهه .

حسناً لقد انتهت الكعكة الى جوفهـا . وانفتح الطريق واسعاً أمام طيور القلق لتخفق فوق رأسها . وإذ خطر لها ان عملها سيجلب سخط أمها . عللت النفس بأكثر من أمل . انـه ليس من المستبعد ان تخدع احدى المشتريات اذا ماأعطتها قطعة نقود من فئة الربع . او النصف ايرة . أما إذا أعيتها الحيلة وكانت كل الراغبات في الشراء من صاحبات الفرنك ، فليس مايمنعها آنئـــذ ان تهرب بأحد فرنكات هؤلاء ، وهن ما هن عليه من عجز ، وراء باب المدرسة الكبير المغلق .

لقد جعلت رتيبـــة تطمئن نفسها . لكنها في الواقع لم تستطع رغم ذلك ان تبدد سحابة الخوف التي لاحت في أفقها .

ثم .. ثم ماذا يمنع ان تكلفها احدى الراهبات بعمل وتنقدها فرنــكا كما حصل مرة .

كان ذلك منذ بضعة أيام حين قالت لها راعبة قصيرة مدورة الوجه : احملي هذه الملفوفات الى الداخل . ماعليك إلا ان تتبعي هذا الرجل . كان ثمة صندوقان خضار ، او ثلاثة على باب المدرسة ، وسلة وبضع ملفوفات .

ان رتيبة تقدر الآن في سرها تلك الراهبة ، إذ طلبت اليها ان تنقل الملفوفات واحدة فواحدة . طبعاً كان في مقدورها ان تحمّلها ملفوفتين أو أكثر دفعة واحدة . ثلاث مثـلاً . إثنتان على اليدين وواحدة فوقهما لكنها راهبة لطيفة . وليس مايمنع رتيبة ان تميل اليها . حتى ان خيالها يزين لها أنها رأت وجهها المدور الحلو من قبل في مكان ما . هو أو شبيه له رأته فيما بعد . وجه يحنو على طفل ، أو يقبل طفلاً . انها لاتدري .

لكن جو المدرسة في الداخل دافىء وغريب معاً . وليس ثمة مايمسك رتيبة اللحظة أن تعاود نقل الملفوفات. ان رتيبة تتباطأ الآن في رواق جانبي. صور ورسوم عن يمينها ويسارها ، والجو ساكن لطيف . ماأحلى أن تعيش هنا إلى الأبد ! تنـام على هذه الأرضية

النظيفة وتأكل من المطبخ .. تشاهد هـــذه الرسوم وتتجه الى المطبخ كلما جاعت . لعل هذا ماتفعله البنات هنا ، فوق أنهن يلعبن في الساحة ايضاً . بيد أن رتيبة لاتريد أن تلعب في الساحـة . في الساحة برد . وهي لاتحب البرد . أما إذا كانت الشمس طالعـــة فستنزل الى الساحة وتلعب بالحبل .

كانت رتيبة لاتزال على حالها منذ ان قرفصت لتأكل الكعكة . كانت تحس بالدفء في وضعها ذاك . والواقع أن رتيبة مدينة للجو إلى حد كبير بذلك الدفء . كانت الريح الشرقية في تلك اللحظة تدافع عن نفسها متراجعة أمام الرياح الغربية بعد ان كانت مهاجمة . وأراحت رتوب ظهرها الى جذع شجرة .

يصدر من مكان ما ترديد نشيد . ومن ناحيـة ثانية أقرب كلمات . نقرات موسيقية تصل اليها بوهن ؛ الموسيقى تجذب رتوب فتتقدم محاذرة بضعة أمتار . تقترب من زجاج نافذة مرتجة . ثمـة شيء غريب لامع يشبه الصندوق تجلس وراءه إمرأة . على جـانب بضع تلميذات صغيرات ومعلمة . المعلمة تنتقي واحدة منهن وتفردها عن الاخريات . تحزر رتيبة من حركات المعلمة انها تدربها على الرقص . المعلمة الجالسة وراء الصندوق تنقر على خط أبيض فتتصاعد موسيقى . الحياة تدب في الأرجل . الفتاة ترقص . المعلمـة ترقص جانبها . الأذرع ترتفع . الأكف تنثني ، تدور . تتكلم . الفتاة تفشل في

ملاحقة حركات المعلمة . الموسيقى تتوقف . المعلمة تختار واحدة أخرى .

وتعجب هذه اللعبة رتيبة فتزداد إقتراباً ، وينسحق أنفها على زجاج النافذة .

وتعيد المعلمة الحركات نفسها أمام التلميذةالجديدة.وتصدح الموسيقى . وترقص الفتاة . وترقص المعلمة . النتيجة غير مرضية . إختيار جديد .

تتقدم في هذه اللحظة الراهبة القصيرة المدورة الوجه ، تلك الراهبة التي لاتدري رتيبة أين رأت وجهها ذات مرة، وتقول لها من الخلف: « أنت هنا ؟! ماذا جاء بك الى هذه الناحية ؟»وتصرفها بعد أن تنقدها فرنكا .

لكم تود لو تركتها الراهبة حيث كانت بدلاً من ذلك الفرنك. هناك ، في الرواق ، حيث تاهت ، لا بيع للسمك، ولا شجار بين أمها وأبيها المخمور ، ولا ضرب بالعصا، ولا برد ، ولا جوع ، ولا نقل ماء في الأماسي على كتفها في صفيحة من بئر الجيران .

وتنهض رتيبة من جلستها .

ماذا لو أبقتها تلك الراهبة الحلوة الوجه ؟ انها مستعدة أن تنقل ملفوفاً وراء ذلك الرجل الذي يحمل الصناديق على ظهره طالما شاءت الراهبة ذلك . وترقص وتلعب بالحبل وتعمل كل ما تفعله الأخريات .

ها هي ذي قدمها اليمنى تتقدم . أو ليس على هـــذا النحو ترقص المعلمة . ذراعاهـا يرتفعـان . الصندوق الأسود اللامع يزفر بالموسيقى . قـدمها اليسرى تلحق باليمنى • ذراعاهـا ينبسطان في مستوى كتفيها . انها صليب . انها طـائر يشق الهواء . قفزة وراء قفزة . الشعر المحزوم عند القحف ، السائب عنـد الأطراف يخفق على ظهرها . نسمة غربية دافئة ، مشبعة بالماء تلامس وجهها. تداعب شعرها. رتيبة تجري في دائرة. شعرها يطير وراءها ذيل مهر صغير. فستانها القصير يرتفع. ينتفخ بالهواء ويكشف عن نصفها السفلي النحيل.

وتابعت رياح الغرب زحفهـا المظفر . واندفعت الأمواج الى الشاطىء جليلة مهيبة وعطفت الأشجار رؤوسها نحو الشرق تنظر هل ثمـة من اثر للعدو . كان غزواً كاملا من البر والبحر والجو . وتساقط المطر يغسل أرض المعركة من أشلاء الرياح الشرقية المنهزمة.

أما رتيبة فقد واصلت رقصها بعد أن انحرفت قليـلا حتى صارت في حمى شجرة خرنوب كثيفة . لقد استخفها الفرح وسرت الدماء دافئة في عروقها . انها لم تعد بردانة الآن . وتألقت عيناها. إنها أشبه بسنبلة ذهبية جارت عليها شمس تموز . « أنا أرقص أحسن من كل البنات » . وارتفعت في الهواء لحظة ، خفيفة لا تلامس الأرض الا باصابع قدميها . هنا ايضاً تعثرت البنات . القدمان تضربان الارض . . تقرعان قرعاً متتالياً . اليمنى . اليسرى . رتيبة

تخطو الى الامام خطواً ايقاعياً . ذراعاها ممدودتان تتقدمانها . وثنية صغيرة تستعطف آلهة غير منظورة .

وحالما استوت قائمة على قدميها أقبلت تتفقد مصير الكعك والحلوى . لقد فعلت ذلك حتى قبل ان تفكر بأن تنفض الوحل والماء عن نفسها . ولكن ماذا ترى ؟! آه يا اله السماء رحماك . كان كل شيء مشوهاً وملوثاً بالوحل والماء .

ان البحر القريب الهادر لن يطغى في الليل فيطوي البيت ويبتلعه . ولن يتسلل الغول من الكوة الخالية من الزجاج ليخطف رتيبة من فراشها . ولن تجثم ام مرزوق مجنونة الحي على صدرها لتستل روحها .

لكن .. لكن بالرغم من ذلك . فان رتوب لم تمض في ذلك اليوم الماطر ، ولا الأيام التي تلته الى بيت ذويها .

البذور الطيبة

كانت كلمات أمه لا تزال ترن في سمعه عندما صفق الباب وراءه ، وبيده سلة من النايلون المشبك في طريقه الى حانوت العم حسنين . لقد طلبت اليه العودة دون إبطاء وحذرته من التأخر ، شأنها دائماً عندما ترسله في طلب حاجة ولا سيما بعد الحرب .

ولعل عمار قد عقد النية باديء ذي بدء على العمل بنصيحة أمه خلافاً لعادته ، لولا ان وجد العم حسنين منشغلا مع بعض الزبائن ، فلم يلبث ان فترت همته في الوفاء بوعده . والواقع ان عماراً لو شاء من ناحيته ان يستعجل العم حسنين لكان من الممكن ان يلبي له طلباته وينصرف من ثم الى البيت . ولكنه وجد في هذه المناسبة ثغرة ينفذ منها الى انتحال الاعذار جريا مع طبيعته التي تهوى التسكع .

لقد ادرك بعد وهلة من وقوفه أمام الحانوت ان الاهتمام الأول بين العم حسنين والزبائن كان منصباً على الحديث اكثر منه على عمليات البيع والشراء . وفوق ذلك فقد كان الحديث يدور حول مسألة تمسه بشكل ما مباشر ، الا وهي اضراب المدارس احتجاجاً على السلطات الاسرائيلية المحتلة . لقد احب عمار ان يستمع الى ما يقوله هؤلاء الرجال بهذا الشأن . ان « عمار » ، وإن بدا قليل الاهتمام في تأدية بعض الواجبات المنزلية ، وحتى وان كان يميل الى

التسكع في كثير من الاحيان ، غير أن هذه العيوب تعتبر قليلة الشأن بالقياس الى شغفه بدروسه وتفتحه كما يقال .

لقد نهض هذا الصباح مبكراً نشطاً كمعظم الصبيان الذين في مثل سنه في يومهم الأول للمدرسة، لكنه لم يلبث ان صدم حين قيل له « لا ذهاب الى المدرسة طالما هناك يهود في نابلس وغيرها »، وقيل له ايضاً رداً على أسئلته الملحة « هذه المسائل أكبر من عقلك. هيا الى السوق واشتر صابونا » .

واقترب عمار خطوة ونصف الخطوة من المتحدثين كي يسمع على نحو أفضل .

كان هناك ثلاثة رجال في مدخل المخزن قرب نضد العم حسنين . كان أحدهم شاباً ملتحيا ، وآخر ملفعا بكوفية . أما الثالث فله شارب أسود كث كسف كل معاني وجهه ، أو جعلها على الأقل تبدو أقل بروزاً في إطار وجهه لولا عيناه الحافلتان .

قال ذو اللحية :

ــ لقد حاولوا ان يغروا الاساتذة بالمال

فعقب الملفّع :

ــ مجانين ! لن يجدوا عربياً يتساهل معهم .

قال العم حسنين :

ــ انهم سيغيرون البرامج

فقال الرجل الشارب :

ـ نعم ! انهم يهدفون الى تخريب افكار النشء

وقال العم حسنين في لهجة هي الى الثقة أقرب منها الى الاستفسار :

ـ لعلهم سيقبضون على الاساتذة بتهمة التحريض .. ان الغزاة يجدون دائماً سبباً للقبض على الناس .

وغشيت المكان فترة صمت . قال ذو اللحية :

ـ انهم يدمرون البيوت بحثا عن الفدائيين

فقال الملفّع :

ـ حجة .. هذه حجة يتخذونها ذريعة للارهاب

وعلـّق الرجل الشارب :

ـ الطريقة الوحيدة ..

وتلفت حواليه فوقع بصره على عمار والتقت عيناهما

ـ الطريقة الوحيدة ان نشعرهم بان الشعب كله من الفدائيين .

ونظر عمار الى كتفي الرجل العريضتين . وتساءل : الرجل الملفع

ـ ولكن كيف ؟ ...

فقال الرجل الشارب :

ـ من السهل ان يستفرد اليهود اي شخص بدعوى أنه من الفدائيين . ولكن حين تتحرك الضفة الغربية كلها كجسم واحد يصعب عليهم اتهام افراد .

ونظر عمار الى ساعدي الرجل المفتولين، الى رقبته الملفوفة، الى جسمه القوى جملة وتفصيلا ، ولم يلبث الرجل ذو الشارب ان انصرف ، وقد ترك وراءه سحابة من الهيبة والغموض .

لقد تساءل كل واحد من الواقفين في سره : «اليس هو من الفدائيين ؟ ! ». ثمة شيء ما امسكهم عن القاء هذا السؤال جهراً . ربما كان الشعور بأن لليهود عيون كثيرة ، وأنه لمن الخطورة بمكان التحدث في مثل هذه الأمور في جماعة التقت عرضاً ، أو لعلهم ادركوا بالحدس أن الجواب بالايجاب، فلماذا اذن القاء هذا السؤال؟ حتى عمار شيعه بنظره الى أن غيّبه المنعطف . وكان لايزال خياله في خاطره حين بدد العم حسنين الصمت الذي خلفه الرجل .

ـ لقد ابتاع عدداً كبيراً من علب التبغ .

ولكن هذا القول كان من الايحاء حتى بدا أنه قد ألقى ضوءاً كافياً على الدرب الذي مضى فيه شكهم .

والتفت العم حسنين الى عمار :

ـ إيه ! ماذا تريد يا عمار ؟ ما أخبار اختك وراء النهر ؟

ـ لقد سمعنا صوتها أمس بواسطة الراديو ، انها بحالة جيدة

فقال العم حسنين على الفور وبلهجة مشوبة بالسخرية :

ـ طبعاً . . طبعاً حالتها جيدة . لعلها قالت . انا عزيزة بنت الشلت من نابلس عمري ١٩ سنة . آه لقد نسيت انهم

لا يذكرون السن . ذكر السن في الراديو شيء زائد . حسناً . أنا عزيزة بنت الشلت من نابلس ابعث تحياتي الى أبي احمد وأمي وأختي فاطمة وأخي نمر وأخي الصغير عمار . صحتي جيـــدة . اطمئنوا وطمنونا . يا لها من رسالة مطمئنة . وقبل أن تنهي الكلمة الأخيرة قطع الراديو صوتها كي تحل غيرها محلها . أو لأنها لم تستطع أن تخفي غصتها . ان اظهار الانفعال في الراديو شيء غـير مستحسن . يجب أن نبدو اقوياء كأنما نحتنا من الصخر .

ثم التفت الى الرجلين ، وتابـع بلهجة اقل انفعالاً :

– لست أدري . لعله ينبغي أن نبـدو كذلك مهما كانت الظروف .

ثم الى الطفل :

– حسناً . ماذا تريد يا عمار ؟..

– صابون وشاي

ثم أضاف عمار الذي حرص أن يبدو انه يعرف من أخبار اخته اكثر مما قال :

– كانت ستأتي الى نابلس . لكن اسرائيل قطعت عودة النازحين ، لقد قدمت طلباً . انها تعيش الآن في مخيم مع جماعة من ضواحي نابلس .

قال الملتحي بحماسة ظاهرة ،ولعله لم يشأ ان يبدي ايةمحاولة ليخفي انفعاله :

- عجباً ! برقبة من هذه المآسي .. تصوروا فتاة تذهب الى عمان لشأن ما ثم يحال بينها وبين العودة الى ذويها .. ماذا كنا نفعل خلال كل هذه السنين . لماذا يتعين علينا نحن من دون أهل الأرض جميعاً ان نملأ فم هـذا السرطان .. وها هي ذي الارض تتقلص في كل مرة من تحت اقدامنا .

ثم واتته صورة بعد لحظة من الانقطاع . وحين وفق الى صياغتها في عبارة، وجد أن الحبل الذي انقطع لم يعد في متناوله ، إذ كان العم حسنين قد مضى الى داخل المخزن باتجاه رف المعلبات . فانصرف الملتحي، ولكنه لم يشأ أثناء سيره إلا أن يضيف العبارة فيما بينه وبين نفسه الى حديثه السابق، فقال بشيء من التأسي: «اننا نشبه المياه التي أصابها الجزر .. اننا ننحسر مع الأيام موجة بعد موجة ».

قال العم حسنين :

- هل قلت يا عمار صابونا وسكرا ؟

ووضع المعلبات على النضد . كانت ثلاث علب ويطل من كل علبة رأس ثور . تناول العم حسنين من الملفع ثمن المعلبـات ورماها في الدرج ، بعـد أن أحصاها بسرعة . فتصاعد منها رنين أصم ، وردد :

- صابون وسكر .

وسارع الرجل الملفع الى القول متقدما على عمار الذي فاته أن يصحح طلبه في اللحظة المناسبة .

– احسب انه قال صابوناً وشاياً .

ولعق عمار عندئذ شفتيه كأنه يلحس الكلمات التي هيأها على اسلة لسانه ، بينما اشعل الرجل الملفع سيجارة واخذ يلف حاجاته بقدر من العناية ، وبدا انه غير مستعجل الذهاب .

– صابون وشاي . نعم نعم . كم تريد صابونا وكم تريد شايا ؟ . .

– خمس قطع صابون وعلبة شاي .

وكرر العم حسنين :

– خمس قطع صابون وعلبة شاي .

وتقدم الى الامام فحمل الصابون من طرف المخزن الأيسر ، ثم وضعه على النضد ، وقال دون تعيين فبدا كأنه يحدث نفسه :

– نعم . ماذا فعلنا خلال كل هذه السنين .

وقرّب قطعة صابون من انفه بحكم العادة اكثر منها بفعل الاختبـــار . وكأن حركته تلك كانت أشبه بالنقطة أو الفاصلة بين عبارتين .

– يا الهي أين نضع وجوهنا . . كل هذه الملايين من العرب . نحن شعب فشار .

وتناول علبة شاي عن يمينه دون أن يخطو خطوة . ومد عمار يده بثمن مشترياته الى العم حسنين الذي اخذها بدوره ونظر اليها . ثم قال للصغير .

ـ لقد بقي لك في ذمتي مليم . فماذا اعطيك بهـذا المليم يا عمار ؟

وطافت عينا عمار بسرعة في أرجاء المخزن ، بينما كانت يده تنقل الصابون الى سلة الشبك . ثم ارتدت العينان ثانية فبدأتا رحلة فوق رفوف قريبة . فمر بصره فيما مر بالدفاتر والمماحي واقلام التلوين ، ثم بالعلك والمربى والشوكولاتة واب السوس .

وأهمل عمار رف اللوازم المدرسية ، لا لانه لم يعد يستشعر حاجة الى الدفاتر وأقلام التلوين بعد اغلاق المدارس ، بل بالعكس ، ان أول ما استوقف نظره هي أقلام التلوين ، وكاد يشير اليها، عندما تذكر أن محفظته حافلة بهذه الأشياء . أما رف الحلوى فلم يكن فيه أي شيء طريف . وكل أصنافه قد مرت تحت أضراسه . وكاد ييأس من العثور على شيء يبهره حينما استحثه العم حسنين .

ـ حسنا يا عمار . ألم تنته الى قرار بعد ؟..

ـ اعطني من هذا .

أشار عمار بسبابته :

ـ ولكن هذا طباشير ملون . عجبا ! ألم تعرف أن المدارس لن تفتح ؟ فماذا يمكن أن تستفيد من هذا الطباشير ؟ انت كعادتك دائماً لاتعرف ماذا تريد حقيقة .

كان الرجل الملفع قد مضى لشأنه منذ لحظة . وكان العم

حسنين يحس برغبة ملحة الى الكلام . كان رجلا صامتاً في الماضي ، ولكن الهزيمة زلزلت روحه وحولته الى انسان لا يكف عن الثرثرة. وكان يتحين الفرص ليمرر انتقاداته . قال بلهجة اكثر لطفا :

ـ لا عليك يا عمار . كلنا هكذا لا نعرف ماذا نريد ..

ثم بلهجة أبوية حانية :

ـ كونوا أفضل منا . نحن جيـــل لا خير فيه .. اليك طباشيرك . اختر شيئاً لفمك . احب أن اقدم لك شيئاً على حسابي. هل ما زلت تحب لب السوس ؟ خذ اذن قليلاً منه .

وتناول عمار الحلوى ، وهمّ بالانصراف ، فاستوقفه نداء العم حسنين .

ـ يا عمار قل لوالدك أن يمر بي . فلدي ما أود أن احدثه به .

ومرر عمار يده في اذني السلة حتى استقرت هناك مكان التقاء الساعد بالعضد . ثم طوى ساعده فتدلت السلة كأنها معلقة في مشجب ، واصبحت يده اكثر حرية في حمل لب السوس الى فمه .

وفتح يده الاخرى بينما هو يتابع سيره . كان فيها أربع أصابع من الطباشير الملون . ابيض ، احمر ، ازرق ، اخضر . يالسروره ! تلك هي أول مرة يرى فيها مثل هـــذه الألوان في الطباشير . ونقّل حبة السوس في فمه بسرعة من جانب الى جانب .

حتى الأبيض وهو لون مألوف لديه صار له ضوء خاص في نفسه . كل لون يزهو بنفسه ويشير الى اللون الآخر . كل قالب عالم قائم بذاته غير محدود الضياء . الآن يستطيع أن يكتب ويرسم ويلوّن على لوحه الأسود الخشبي الجديد ماشاء له مزاجه أن يفعل .

ورأى فتيين يعرفهما من حيه يتحدثان بجانب جدار . كان أحدهما يقضم كعكة بغير شهية ، وآخر يدخن لفافة ، فتمهل حينما حاذاهما . قال صاحب اللفافة :

ـ لقد اعتقلوا الأساتذة، ويقال إن ثمة مظاهرةستنطلق من مكان ما .

فقال الآخر :

ـ وماذا تنتظر من اليهود .

وابتلع لقمته بصعوبة . وقال بعد تأمل قصير :

ـ لقد مزقوا أحلامنا يا محمـــد ودمروا كل شيء . لقد اعترضتُ سيول النازحين نحو الشرق مرة وقلت : « ياجماعة الى أين انتم راحلون ؟ » . كان هناك عجوز يحملهـــا حفيداها . لقد اصطنعوا لها نقالة من شرشف وعودين . « بالله عليك ياجدة »قلت. وعبثا بحثت في ذهني عن شيء أقوله لها . ورمى الكعكة دون أن يكملها .

ـ من الصعب أن تطلب من الآخرين ان يقـــاتلوا بإيمانهم فحسب .

فرد الآخر :

- ولكن هل تعتقد أننا نملك الايمان .. اني اشك في ذلك .. اني اشك .

وقال بعد لحظة توقف بلا مقدمات كما يسقط الشهاب في الفراغ :

- هؤلاء الأطفال .. هؤلاء الآلاف من الأطفال في مخيمات .. غدا عندما يحل الشتاء .. اني لا أستطيع أن اتصور ذلك .

وكان عمار في أثناء ذلك ينقل بصره بين الاثنين . فما يكاد احدهما يمسك بزمام الحديث حتى يترك الآخر ويلاحق المتكلم .

وقال صاحب اللفافة منفعلا :

- لقد سمموا حياتنا فيجب ان نسمم حياتهم . لنزرع الرعب في قلوبهم . قل لي يا محمد لمن هذا القول : « اذا لم تمت حبة الحنطة في باطن الأرض لن تزهو في الربيع سنبلة ؟ » .

- لست أدري . لعله كاتب كبير او نبي كبير . ولكن ما الفرق . يبدو لي انه ليس هناك خلاف كبير بين الكتاب والانبياء في بعض الاحيان .

فعقب الآخر :

- ليكن من كان صاحبه . يخيل إلي أن هذا القول يفسر كل شيء .

وانصرف الشابان بعد أن سحق صاحب اللفافـــة لفافته بعقب حذائه . واستأنف عمار سيره فقطع بضعة أمتار حتى اقترب من نهاية الساحة حيث يتفرع طريقان . كان كل من الطريقين يؤدي الى بيته، وإن كان لكل منهما ميزاته . فالطريق التي في صدر الساحة طريق قصيرة مباشرة، وإن كانت مغبرة في الصيف وموحـــلة في الشتاء ، أما الطريق الجانبية فهي طريق أطول .

وقـد اعتاد عمار أن يسلك هذه الطريق في الأوقات التي لا يكون فيها على عجل من أمره ، ولا سيما أيام العطل الاسبوعية . فبعد أن يجتاز عدداً من القناطر يتوقف عند عين العسل فيبتلع حفنة أو حفنتين من الماء يتلذذ بها، وقد يرشق وجهه أحياناً ببعض الماء تبرداً قبل أن يمضي في الشارع العريض متسكعاً يشقشق فستق العبيد أو يمص لب السوس .

وما كاد يصل الى النقطة التي بات يتعين عليه فيها أن يحـدد وجهته، حتى فكر أن الوقت لا يزال مبكراً كي تبدأ أمه الغسيل، فليتقدم إذن في الطريق الجانبية . وفوق ذلك فهو اذا ما سلك هذه الطريق فسيمر من جهة الشرق بمدرسته التي اشتاق اليهـــا ، ومن يدري، فقد يصادف المظاهرة التي تحدث عنها الفتى ويستمع الى بعض الأشعار والخطب الحماسية . ثم .. ثم هو لم يزر شارعه العريض منذ أن حدثت الحرب .

وبدأ عمار سيره في أزقـــة مسقوفة بالقناطر . كان الجو هناك بارداً نوعاً . والنور أقل ضياء . وكانت العتمة تشتد أحياناً ، أو تخف تبعاً للشمس، حيث تتكشف أو تحتجب وراء غيمات ايلول الفضية ، وكانت الطريق خالية باستثناء الشخصين اللذين صادفهما عمار في فم الزقاق واحداً بعد الآخر .

وفكر عمـــار : « عجباً أين ذهب الناس ؟ » . وتسارعت خطواته . لم يشعر أبداً في هذا الطريق من قبل بمثل هذه الوحشة . ففي الأيام الصائفة كان يحس بشيء من الراحة ، بـــل من الفرح يسري في رجليه ويديه وأنحاء بدنه عامة، فيتواثب كالعصفور وهو يجوز هذا البلعوم الرطب المعتم .

حتى عين العسل كانت خالية من السقائين بينما الماء يخرخز بهدوء . واجتاز العين دون أن يشعر بأدنى رغبة بالتوقف لازدراد جرعته المعتادة ، أو يرشق وجهه بالماء .

وشاعت البرودة في أطرافـــه ، وتسارع وجيب قلبه مع تسارع خطواته، حتى أحس خوفاً لم ينقشع إلا عندما صار في الشارع العام . وفاجأته الشمس في الخارج بتألق حاد فبهرت عينيه وآذتهما. ثم ما لبثت عيناه أن اعتادتا الرؤية .

كان أول مـــا لفت نظره في الشارع مشهد دورية اسرائيلية تتقدم في اتجاهه ، مؤلفة من أربعة جنود يهود وشرطي

عربي . وكان الجميع يتطون جياداً . كان الشرطي العربي يسير في المقدمة جامد الملامح كأنه وجه مصكوك على عملة قديمة ، أما اليهود الأربعة فيسيرون وراءه مباشرة مثنى مثنى،على وجوههم تعبير وقح . ذلك التعبير الذي لا يظهر إلا على الأشخاص الوضعاء حين يحصلون على أشياء لا يحلمون بها في الواقع . وكان الجنود اليهود مسلحين ببنادق سريعة الطلقات ، بينما الشرطي العربي أعزل من أي سلاح .

ولم يكن هذا شأن الدوريات دائماً . كانت الدوريات في الأصل مؤلفة من اليهود فحسب . ولكن حدث في الشهر الماضي أن اختفت دورية يهودية بأحصنتها في حارة الياسمينة . فلجأت السلطات الاسرائيلية عندئذ الى اتخاذ شرطي عربي كدرع لحماية الدورية .

وتقدم عمار بضع خطوات أخرى . ثم توقف فقرأ على جدار مواجه « يسقط الاحتلال الاسرائيلي » ، وتحت هذه العبارة مباشرة بخط أصغر « المدارس مغلقة حتى اشعار آخر » .

وتوقفت الدورية فجأة . ونظر قائدها الى الكتابة على الجدار ، وتمتم ساخطاً ببعض الكلمات . ثم استأنفت الجماعة سيرها . وما كادت تعبر عماراً حتى تفل في أثرها « كلاب . أولاد كلاب » .

وتابع الصبي سيره بعد ذلك حتى وصل الى مخزن لبيع القطع الأثرية فوقف أمام واجهته ، وبدا للحظة انه يبحث عن شيء معين . ولم يطل تنقل عينيه ، إذ سرعان ما استقر بصره على نسر محنط مثبت الى قاعدة منشور الجناحين . لكنه لم يمكث طويلا حتى تملكه الملل . عبثاً كان يأتي في كل مرة كي يرى ان النسر قد تخلى عن قاعدته . كان يود أن يراه يوماً يطير طيراناً حقيقياً .

واستأنف سيره من جديد . كان الشارع كعهده به دائماً : فالمخازن والدور والارصفة في اماكنها ، كذلك اشجار الكينا على جانبي الطريق . والسينما ! ها هي ذي السينما هناك . ولاحت له من بعيد بقية صورة في لوحة للاعلانات السينمائية تمثل قبضة مغلقة كأن صاحب تلك الصورة قد اشترك بدوره في الحرب ولم يبق منه الا هذا الذراع المهدد ، او القارع على باب اصحابه صم .

كل شيء في شارعه الأثير كما كان يعرفه من قبل ، سوى ان مخزن «القناعة» للألبسة الجاهزة قد حطم كما حدث أخوه ، وقيل ان اليهود قد نهبوه . وسوى عمود كهرباء قد لوى حتى ناخ الى الارض وتقطعت منه الاسلاك .

وأما ما خلا هذا وذاك ، فلم يكن ثمة شيء قد تغير او أزيح من موضعه . لكن مع ذلك بدا له ان كل شيء قد تغير وأزيح من موضعه . فالشارع والمخازن والدور والحوانيت والناس

وأشجار الكينا والواجهات البلورية لاحت لعينيه انها ليست هي ذاتها . وانما هي قد استبدلت بأشياء شبيهة بتلك التي يعرفها . وان الشارع لم يعد نظيفاً حلواً ، وانه يعج بأشياء غريبة ترقبه وتشاركه انفـاس الهـواء .

وانتقل فجأة الى الرصيف الثاني كأنـه يحاول الافلات من تلك الاشباح التي تكدر عليه صفاء نزهته . ثم شرع يحلج ، فيركض . وسرعان ماعاد يحلج ثانية حتى تعبت منه رجلاه ، فاقتعد عندئذ جانب الرصيف ومد رجليه على السكة .

« لا تتأخر يا عمار » تذكر وصية أمه ، وفكر ان عليـه أن يرحل الى البيت . لمـاذا هو منقبض النفس ؟! ما الذي حـدث لشارعه الاليف ؟! ربما لأنه تأخر أكثر من المعتاد ؟ لكن من عادة عمار أن يتأخر أكثر من ذلك احيـاناً . لا شك إذن . لا شك انـه حزين لأن عزيزة وراء النهر .

ومرت دورية يهودية في سيارة لوري . كان فيها صفان متقابلان من الجنود اليهود « ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ - ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ . ٦ و٦ = ١٢ . في السيارة إذن ١٢ يهودياً ، ١٢ يهودياً يعني ١٢ خنزيراً » .

ولاحق السيارة وهي تدرج ببطء ، كما لاحظ الجنود اليهود . كان كل منهم قد ركز أمامه بندقيته بين رجليه واعتمد سبطانتها بيديه .

واستعرض وجوههم بسرعة . ثم توقف عند واحد منهم له سحنة غير مألوفة وشاربان مقرفان . وشعر نحوه بنفور خاص ، وللحظة كان الصفان من الجنود لهم نفس السحنة الغريبة والشاربين الكريهين .

« يسقط الاحتـــلال الاسرائيلي » صاح بصوت رفيـع غاضب . وأحس أن هؤلاء اليهود هم الذين شوهوا شارعـه وسلبوه اياه . وان آلاف العيون التي كانت ترصده في الخفاء إنما هي عيونهم . ورفع يـــده التي تحمل السلة مهدداً : « لماذا اختي عزيزة وراء النهر يا خنازير . اللعنة عليكم » . ولوّح له أحـد الجنود بيده ، ولعله حسب أن الطفل يرحب به ، وسره أن يحييه عربي وإن كان طفلاً، فأشار له ضاحكاً . ونظر عندئذ باتجاهه أكثر من جندي يهودي . وابتعدت السيارة .

« تقول لهم : يسقط الاحتلال الاسرائيلي . فيضحكون . وتقول : اللعنة عليكم ، فيشير البندوق بيده » . واضاف بعد لحظة « ربما هم لا يفهمون كلامنا » . وبصق على الارض بـين رجليه ثم مسح البصقة بقدمه وتذكر الدورية التي كانت تمتطي الجياد. واعتلى في لحظة ظهر الحصان الاحمر مكان الشرطي العربي واستل سيفه من غمده في مثل لمح البصر وضرب يميناً ، وضرب يساراً، فجندل الجنود اليهود وتدحرجت رؤوسهم مضرجة بالدماء .

آه لو كان أطول ! وحرر ذراعـــه من السلة . ثم وضعها

بقربه . وأحس بلزوجة في يده فبسط راحته . كانت حبات لب السوس قد تميعت . وفكر ان يرميها . لم تكن الحبات السوداء لذيذة مثلها في الماضي . انها تترك في فمه طعماً غريباً يزداد كثافة .

واخترقت الطريق سيارة مسرعة . ومرّ رجل فقال له عمار بوقار :

– يسقط الاحتلال الاسرائيلي .

فقال الرجل :

– يسقط الاحتلال الاسرائيلي .

ونصحه الرجـــل أن يمضي الى البيت ، لأن الجلوس على الرصيف بهذه الوضعية ليس آمناً في هذه الايام .

« انهم سيفتقدونني » فكر عمار . ثم قال حانقاً بصوت عال «لماذا ينبغي ان اعود دائماً الى البيت» ، ثم برفق أكثر « لعلهم يخافون علي ، إذ يحسبونني ما زلت ولداً صغيراً » . ودفع حبة سوس الى فمه . وقال بسخرية مضخماً صوته كصوته أمه «لا تتأخر يا عمار فالغسيل على النار . طبعاً طبعاً الغسيل على النار . وعمار من يجب عليه ان يشتري الصابون . هيا يا عمار اشتر الشاي ، هيا يا عمار اشتر الخبز . هيا يا عمار .. هيا عمار .. وغر لا عمل له في هـذه الايام الا التغيب عن البيت . واذا ظهر في البيت فلكي يغير ثيابه على عجل . وليأ كل أحياناً لقمة كيفما اتفق وهو مطرق مقطب وسط افراد العائلة يجيب

قليلاً على اسئلتهم الكثيرة . ومع ذلك فعيناه لا تغفلان لحظة عن صرته المجهولة التي حملها معه . واذا اقترب منها عمار قيل له : ابتعد عنها لا تمسها. واذا حاول عمار ان يشارك الآخرين التحدث عن اليهود والمقاومة والسياسة قيل له : انت صغـــير حتى تتحدث في هذه الامور . طبعاً صغير في التحـدث عن السياسة واليهود والحرب ، ولكن غير صغير عندما يشتري الصابون والسكر والشاي والخـبز واللبن . وعندما قال هذا الصغير لنمر : والله سأبصق على اليهود . قال له : لعلهم سيقطمون رقبتك ان فعلت . وها انذا بصقت ولم يقطموا رقبتي » .

ولاحظ ان يده الثانية ما برحت مغلقـة منذ زمن طويل فاستغرب ذلك . وفتح يده فطالعته أصابـع الطباشير الملونـــة وضحكت له . وسرعان ما حملت خياله الى البيت ودخلت به رواقاً حيث لوحه الاسود الخشبي الجديد يستند الى جدار . قال عمار مخلصاً « ينبغي ان أعود الى البيت » . لقد وعده اللوح الاسود ، والطباشير الملون بعدد من التخيلات الملونة لا حصر له .

لكنه بدلا من القيام بأية محاولة حقيقية في سبيل التحرك الى البيت ، يدفع حبتي السوس الى فمه ثم يجفف باطن يده الرطبة في مؤخرة سرواله .

والآن لينقل اليها أصابـع الطباشير بعد ان يستبقي في يده

الاخرى واحداً من تلك الاصابع. ولكن ايها يختار ؟! الابيض؟ ليس الابيض حتماً . حسناً لعله الازرق دون ريب .

ولكن السماء الفسيحة زرقاء ايضاً . ثم ان بيته أزرق بدوره . ليكن الاحمر اذن . وسرعان ما انفرد الاحمر بتألق خاص .

واستبقى عمار الاحمر في يده ،بعد ان نقل أصابع الطباشير الى اليد الثانية .

حسناً ليجرب الاحمر الآن على الارض . أليست الارض سوداء بدورها كاللوح الخشبي . هو ذا خط وآخر . يا للون الجميل !

ومر بيده على ارض السكة بحنان . ثم انبطح على الارض. والآن ليكتب . ولكن ماذا يكتب ؟ وفكر فخطر له عفواً : « الى اختي عزيزة وراء النهر . لقد اشتقت اليك كثيراً . ولم يعد أحد يضربني في البيت . حتى نمر لم يعد يفعل ذلك . ربما لانه يتغيب كثيراً عن البيت . لقد بكت أمك كثيراً أمس عندما سوّت سريرك ، وقالت : يا ويلي كيف تنام الآن ؟ وقالت ايضاً : أنتم لا مراحيض عندكم في المخيمات ، وانما تقرفصون في البراري وتقضون حاجاتكم » .

وتوقف لحظة عن التخيل . لقد فكر ان يسألها « الا تستحون من بعضكم ... ورفع رأسه فشاهد شابين يحثان الخطا

وسمع طلقات رصاص بعيدة . ثم تابع تفكيره . « لقـد بصقت اليوم على اليهود الخنازير ، وقلت لهم: يسقط الاحتلال الاسرائيلي».

وكاد يختم خطابه الى اخته ، عندما تذكر ، فأضاف: « لقد قالت الماما أيضاً : لا بد ان ثيابك قد اتسخت كثيراً » .

لكن عماراً لم يخط حرفاً مما خطر له ، لقد فكر ان هذه الكلمات الكثيرة تليق برسالة . ثم تابع تفكـــيره بصوت عال « سأكتب لها رسالة حتماً عندمـا أعود الى البيت » ولكن ماذا يكتب الآن ؟!

ووضع اصبعه على صدغه . وراح يبحث في ذهنه عن شيء آخر . شيء سريـع ومقتضب مثل « يسقط الاحتلال الاسرائيلي » أو « المدارس مغلقة ... » .

وبدأ بكتابة حرف عين . ثم محاه وعـاد فكتب فاء ، ثم كتب لاماً . وعنـــد ئذ انكسر اصبع الطباشير تحت ثقل يده الضاغطة . فأهمل القطعة الخلفية من الطباشير وامسك برأس الاصبع من جديد .

ولعل انكسار الطباشير قد أتاح له مجالاً لم يكن في الحسبان، فاغتنم الفرصة وراح يتأمـل جمال اللون الاحمر . او يسترجـع ما كتب ليختبر مدى صلاحيته كبداية .

واستأنف الكتابة ثانية . فمد قاعـدة اللام قليلا وشرع يصلها بحرف آخر .

ومرقت في الشارع سيارة اسعاف تزمر تزميرها الخاص . فلاحقها المارة بأبصارهم . لعلها فسّرت لهم همهمة الرصاص البعيدة التي سمعت منذ قليل . ولاحظ عابران يقطعان الرصيف عماراً فسأل احدهما رفيقه :

ـ عجباً ماذا يفعل هذا الصبي المنبطح هناك ؟ . .

ومن بعيد لاحت الدورية الاسرائيلية الآيبة تتقدم فوق أحصنتها . اما عمار فقد تابع عمله وشرع يثبت الحرف الاخير من كلمته الاولى . واستطاع العابران ان يقرآ « فلسطين » حتى قبل ان يكمل عمار تنقيط الحرفين الاخيرين من الكلمة ، وتوقف عابر ثالث وسأل :

ـ ما الحكاية ؟ . .

ثم سكت عندما قرأ كلمة فلسطين . وكاد يتكلم من جديد عندما نظر اليه أحد العابرين . فأمسك ثانية . وساد الموقف جو من الهيبة اشاعه انهماك الصبي الجاد في عمله . وتساءل كل من الواقفين في نفسه عن الكلمة التالية .

وفي الاعالي كانت الشمس تحتجب او تمدّ رأسها من خلل غيمات الخريف الرمادية كأنها تتوقع أمراً ما . وصفقت أغصان الكينا لمقدم الشتاء . وعلى طول الشارع الذي يكاد يكون خالياً تقريباً كانت الدورية الاسرائيلية تتقدم باستمرار فوق احصنتها .

وبلل عمار أصابعه بريقه ومسح الحرف الثالث بعـد العين والراء من الكلمة الثانية ، ولفّ ساقاً على ساق في انبطاحه . وبدأ يخط حرفه الثالث من جديد فكتب باء ، ثم ألحقها بياء .

وحينما مدّ الياء كي يصلها بالحرف الاخـــير ليختم كلمته ، استأنف العابران الاولان طريقهما ثم لحق بهما الثالث على الاثر . لقد قرأوا الكلمة قبل ان تتم . كان واضحاً بالنسبة اليهم انـه سيقفل الكلمة بالتاء المربوطة . قال احد العابرين بتأثر :

ـ تصور هذا الطفل !

ثم غصّ . وقال رفيقه :

ـ يا الهي هل حسبنا اليهود لقمة سائغة حقاً ؟

وكادت الدورية الاسرائيلية المارة تعبر عمارا . غيران قائدها تساءل في اللحظة الاخيرة عما يفعل هذا الصبي المنبطح في عرض الطريق ، وشد عندئذ عنان جواده نحو النقطة التي انبطح فيها الصبي، فتبعته بقية الدورية على الاثر .

حدث ذلك في نفس اللحظة التي نهض فيها عمار واقفا وبدأ ينفض ثيابه وهو يقرأ بالخط الاحمر الكبير : « فلسطين عربية » .

وفي البيت كان الاب ينتظر الشاي ليتناول وجبة الصباح . اما الام فقد تساءلت بقلق عن السبب الذي اعاق ولدها . بينما كانت الثياب التي تحتاج الى الغسيل تغلي فوق النار بانتظار الصابون.

الملاح وسرّ البلورة

وعندما وصل الى مشارف القرية هرته كلابها . ولكنها لم تتعد حدود ذلك . ثم تراجعت ور كنت وبدأت توصوص اليه بعيون مرتابة من على مصطبات البيوت. وكانت السنتها المتدلية الحمراء بعيدة عن القرار .

اما هو فقد تابع طريقه بهدوء في دروب القرية . وكانت الشمس تبعث اليه برسلها من خلال اوراق الاشجار ، فترسم على ثيابه رماحاً واشكالاً من نور مريعة الانحاء .

وكان اهل القرية كغيرهم من البشر يتصايحون من على اسطحة المنازل . وكانت النساء حبالى ، والرجال يجترون ذكريات الماضي البعيدة ، والاطفال يدورون في حلقات ، بينما الثعالب تغير على العناقيد الدانية . وكانت الحملان والذئاب تطعم جنباً الى جنب . قال :

– هذه قرية غريبة .

ورنّ في اذنه دوران دولاب . كان ثمة صبية قاعدة على مصطبة تغزل . وعلى مسافة منها قطة تداعب كرة الغزل . وكان شعرها حبلاً مجدولاً أسود . وكان يعلم انها ترنو اليه من جانب .

وكرر قوله :

– هذه قرية غريبة

ثم اضاف :

اهلها سعداء حتى الثعالب

فأمنت الصبية برأسها . وتابع :

- انها تلتهم العنب بلا خوف

فقالت الغازلة :

- بل انها تقوم بداعبة العناقيد فحسب . لقد لوينا اعناقها يوماً . احتفظت ببعض حركاتها القديمة ليس غير . اما الذئاب فلم تهادنها . ولكنها ارتضت ان تعيش الى جانب الحملان .

وقال لنفسه « انها فتاة ذكية الفؤاد » . سأل :

- هل رحلت يوماً الى مكان ما ؟ . .

- رحلتُ الى كل مكان .

- اعني هل تركتِ القرية يوماً وذهبت الى اي مكان في العالم ؟

آه . طبعاً طبعاً . لقد رحلت الى بلاد الاعاصير والعواصف والامطار والرياح في الشتاء ، والى عوالم الازاهير في الربيع . وسافرت بين الافلاك في الليل : نحن كوكب سيار . وفي الخريف يأتي الينا العالم . ان عالم السحاب عالم سحري .

وحدث نفسه «إن الاشياء معكوسة في ذهنها» ولكنها سعيدة » . وتلفت حواليه واشار بيده سائلاً :

– اين رحلوا ؟..

كان ثمة بيوت سقوفها من القرميد الاحمر. وكانت العناكب قد عششت على ابوابها الموصدة ، ونوافذها الخاوية. ومدت الاعشاب والحشائش رؤوسها ، وغزت المصاطب وعتبات الدور . فحزّ ذلك في نفسه وفكر « هل ماتوا ؟ » . ثم لم يلبث ان اوجد لنفسه تعليلاً اكثر املاً، إذ قال «لعلهم ذهبوا يبنونِ حياتهم من جديد تحت سماء لاتعرف الجفافِ » . قال :

– كيف كان شكلهم ؟ هل كانوا يستنبتون الأزاهير ، ويقرضون الشعر ؟

كانوا يفعلون ذلك اذا ماعادوا من اعمالهم . وكانوا يرقصون ويغنون. اما الأطفال ، فيبنون اعشاشاً من الأوراق المتساقطة يخربها لهم الكبار في الظهيرة وقت الغداء ، ثم يعاودون بناءها في الأصائل . ولكن الكبار يهدمونها بغضب في الأماسي .

ورفّت أجنحة الأسى

– لقد وجد الحزن طريقه الى هذه القرية ايضاً

قالت :

– ان الحزن يعطي الاشياء طعمها الحقيقي

ولاحظ النسيج بين يديها

– ياللنسيج الجميل . لمن هذا الثوب ؟

وتجاهلت المرأة سؤاله ، ولعلها لم تسمعه ، إذ قالت :

ـ لعلك قادم من بلد بعيد . إنك كثير الغبار

ـ نعم من بعيد . من بعيد جداً

ولمعت في خاطره قصة الملاح التائه، وعين الشمس الملتهبة . سألت :

ـ هل تغزل الفتيات هناك أثواباً ؟

ـ كن يفعلن ذلك ذات يوم . لقـد استعضن عن المغزل بالآلة . ان الآلة تنتج اثواباً اكثر

ـ اواه ! وماذا يفعلن اذن ؟

ـ يأكلن المثلجات ويضعن الفلفـل اليمني على السنتهن . في بلدي تحلم الفتيات بفرسان من الدمى . وعندما يسري فيها الدم تولي فراراً . في بلدي لايميز الناس بين زرقة البحر وزرقة السماء .

سألت فتاة المغزل :

ـ ماهو البحر ؟! يبدو لي انني سمعت عن شيء اسمه البحر، او حلمت به . لست ادري .

ـ إيه . انه عالم مليء بالامواه . مليء بالغرائب . انه شيء رائع يمور بالأسرار وتحلق فوقه طيور الماء . انه البحر .

وتدحرجت كرة الصوف فتدحرجت معها الهرة .

ـ وماذا هناك أيضاً ؟ يبدو لي ان بلدك غريب حقاً

ـ في بلدي يجلس الناس على الأرصفة يدخنون النراجيل ويقيمون العالم من وراء حلقات الدخان المتصاعدة . في بلدي يقتتل الناس من أجل كلمة . الكلمة هناك سيف مشرع .

فقالت الصبية بحزن

ـ اواه . ان هذا لمروع . لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا ؟.

وبدأت ترفع رأسها لأول مرة عن بكرة الدولاب . وبدا القلق عليه . فقالت بسرعة :

ـ لست ادري .. لست ادري . ربما كانت الثعالب وراء كل ذلك .

وحدث نفسه : « يالها من مخلوق رائع ! » . والقم النار صنوبراً . قالت :

ـ ان الثعالب اشياء خبيثة مالم نسحق انوفها في التراب .

ورجف قلبه « انها تحس بكل شيء . وتتقصص الاثر كحيوان الارض الاول » . وعبقت في انفه رائحة البن المحروق . وانغلقت النوى وتبرعمت . واشتعل الزهد ضياء في عينيه . وماءت الارض من تحته . كان يشعر انه امام قاض مهيب قد الم بقضيته ، وان العالم قد خلا إلا منهما . ورفع يده مستدركاً كأنه يقول « ثمة شيء اساسي اريد ان اضيفه الى القضية » . ودفع في يدها بلورة زجاجية بحجم بيضة الأوز . قال :

ـ بلورتي من اليابان أهدانيها رُبان ياباني

وتذكر ذلك المساء . يوم كان في المرفأ مع رجال الجمارك والامن العام وخفر السواحل. كان في ذلك الحين يعمل في البحر . وكان يصعد الى كثير من السفن . ولقدتعرف من خلال عمله على كثير من مدن العالم . ونبضت دماؤها في عروقه .

« كم قوساً رسمت الشمس فوقك وانت تدور في الأرض؟ أما آن لك ان تفيء الى ظل، وتركن الى ينبوع؟!» حدث نفسه .

لم يفكر يوماً ان الامر سيغدو على هذا النحو من التعقيد . بمجرد مصادفة كان يمكن ان تقع لاي شخص آخر لوأعطي هذه البلورة الزجاجية .

لو حدث لكان ذلك الشخص الآن يتلقى سياط الشمس : أو ربما قذف البلورة الى اليم وهو يهبط درج السفينة منـــذ اللحظات الاولى .

قال لفتاة ذات يوم :

ـ ماذا ترين في هذه البلورة ؟

كانت فتاة تهوى المطالعة والشعر ، وتجيد الاصغاء . وكان يحسب انها تفهمه .

ـ لاشيء

اما هو فكان يرى فيها شيئاً .

هكذا بدأت الحادثة بسيطة مثل أي شيء آخر . ومنذ ذلك الحين اتخذت الامور سبيلاً مختلفاً تماماً . وهكذا بدأ يعرض بلورته على الآخرين . وعبثا كان ينظر منهم ان يروا مثل مايرى .

ـ آه ما اروعها !

قالت فتاة المغزل وقد قبضت على البلورة بيديها الاثنتين . وراحت تتطلع إليها باستغراق ، ثم اضافت بهمس وهي مطرقة الرأس .

ـ ياالهي ما اعمق زرقته !

وقال لنفسه « انها فاتحة لابأس بها . ان البحر بعض الحقيقة ولا يضير ان تبدأ من هذه النقطة » . وبدا أنه لو بدرت منها اشارة اخرى لالقى عصاه ، ثم شرع في خلع نعليه واستسلم للنوم .

وكان يعلم انه لوفعل فسيصبح صديقاً للثعالب والذئاب، وسيقوض الاعمدة والركائز التي ترفع العناقيد ، ويلغي عمل النواطير ، وسيقود جماعات الصغار يدافع عن حقهم المشروع في بناء اعشاش لايخربها لهم الكبار وسيمسح عن القرى احزانها .

كان قميناً في تلك اللحظة بأن يفعل اي شيء ، حتى تلك الاشياء التي لايستطيع القيام بها البشر العاديون فقط حين تبدو انها ادركت سر البلورة الزجاجية . وكانت المعجزة تختنق في صدره .

قال :

ـ وماذا ترين ايضاً ؟ لعلك ترين ملاحاً او شراعاً . هناك دائماً ملاح تائه في البحر

ولكنها سألت :

ـ من هو الملاح التائه ؟ يبدولي انه شيء غريب حقاً

قال في نفسه « ان التصور بعض الحقيقة ايضاً . اذا ملكت التصور بالاضافة الى البحر ، ملكت نصف الحقيقة » . كان واضحاً انه قد بدأ يتساهل في بعض شروطه . لقدبات يفكر في الشمس على نحو غير عادي . لقـــد اضحت تؤذي عينيه . لعله بدأ يشعر بالهرم .

قال :

ـ لقد خرج الى اليم ذات يوم . خرج ولم يعد

من المؤكد انه لم يكن قد قرأ قصة الملاح التائه . فقد كان موظفاً ، ويبدو أنه يستحيل بالنسبة الى الموظفين ان يقرؤوا قصصاً . اذ انهم يقضون اوقاتهم في التفكير في البيت حينما يكونون في العمل ، بينما يمضون في البيت النصف الآخر في التكلم عن العمل . بالطبـع هو لم يكن تماماً من هذا النوع من الموظفين . وقد لاذ بالفرار عندما احس دبيب الانشوطة يلتف حول عنقه : وعندما امتلك البلورة الزجاجية . وعندما ناداه حنين الشواطىء المنسية ، وصر في اذنيه انين السواري المتقلقلة .

وهكذا قال متخيلاً ماينبغي ان تكون عليه قصة الملاح التائه حسب ما اسعفه به خياله .

ـ لقد اقلع يوماً بحثاً عن شيء ما . ربما خرج يجني المحار ، اويصارع الحيتان . وفي الطريق استهوته النجوم كما يستهوي النور الفراش .

وامسك عن الكلام وتلفت حواليه . فاستوقفته بيوت القرميد المهجورة وخشخشة الاوراق وترددت انفاس السكون في الظل الذي راح يتقلب تحت ناظريه كحيوان متعب . وحدث نفسه « هذه البيوت كانت عامرة بالحركة ، وكان الاطفال يملؤونها لغطاً وضوضاء » .

ووصل الى سمعه وجيب الحياة من اسفل القرية . ودار دولاب الغزل . سألت :

ـ ما الذي حدث بعد ذلك ؟ هل جنى المحار ؟

ـ لقد استخرج اللؤلؤ . وصرع الحيتـــان ثم بصق عليها جميعاً .

سأل وقد ادرك فجأة ان سهامه اخذت تطيش لحظة بعد لحظة

ـ متى ينتهي هذا الثوب ؟ ..

قالت :

ـ لست أدري . قد ينتهي اللحظة ، وقد يستغرق عمله

طول العمر .. انني اعيد حياكته منذ امد بعيد .. انني أريد ان اجعله لائقاً

فقال على سبيل الاختبار :

ـ ولكن أليس هذا مضيعة للوقت ؟

فسألت بدهشة :

ـ ألا تعيد الفتيات هناك حياكة الأثواب ؟

ـ كلا . إن الناس هناك لايجدون متسعاً لذلك . انهم ينتجون أثواباً بالجملة ويقذفونها الى المخازن . اننا نأخذ اثوابنا من المخازن .

ـ عجباً ! كيف تتعرف الى ثوبك مادامت لم تنسجه لك أية فتاة ؟

قال :

ـ إن الآلة تنتج اثواباً لكل الناس .

ـ وكيف تنسج الآلة مايناسبك اذا لم تفكر بك ، ولم تزك في أحلامها ؟ انك ترتدي ثوبك بلا ذكرى .. واذا بلي فلن يكون ثمة احزان .. وستكون شيخوختك موحشة بلا صرر تفرشها في وحدتك .

وقال لنفسه « هذه الفتاة تفكر على نحو غريب . انها

لقمينة بأن تملك بلورة زجاجية » . وفكر ايضاً « واذا امتلكتها فلن يكون لها أي معنى لأنها مربوطة الى هذه المصطبة بينما الملاح التائه يزداد فقراً يوماً بعد يوم » .

وسادت فترة صمت وتمطت الهرة ، ثم ماءت . وبدأيفكر في الرحيل . سألت :

ـ ماذا حل بالملاح التائه ؟ هل عاد الى جزيرته ؟

ـ كلا . لقد فقد شواهد العودة .

ـ أواه !

وبدأ يصدق قصة الملاح التائه .

ـ لقد علق في شرك الشمس بعد ان خلص من اسر النجوم . انه اراد ان يتحداها فوقع في شباكها . وانني لاتخيلهاوقد فرشت حوله اصابعها الاخطبوطية فراح يعمل فيهاتقطيعاً . نعمانه يملك قوة عجيبة حتى ليستطيع ان يقطع آلاف الاصابع الشريرة. ان له قدرة مدهشة على ترويض الاشياء .

ـ ياله من بطل ! بماذا يقاتل ؟

ـ لست ادري . لقد فقد سكانه في احدى العواصف ، كما فقد مجذافيه ومديته في صراعه مع الحيتان. ان الرجل لايعدم وسيلة للدفاع عن نفسه .

وباتت قصة الملاح التائه حقيقة لايتطرق اليها الشك

ـ غير ان مايحزّ في نفسه هو أن الشمس صارت توجع عينيه على نحو غير عادي . لسوف يؤلمه ان انتصاره لن يكون كاملا في النهاية . لأنه لن يستطيع حينئذ ان يحمّل بصره قدراً كافياً من التحدي للنظر في وجه الشمس .

واعتمدت خدها بيدها بينما دار دولاب الغزل دورة أو دورتين بفعل قوة الدفع مرسلاً أنيناً. وحدث نفسه واحسب انها في صراع مع نفسها .. لسوف يدور دولاب الغزل ويكر النسيج بين يديها حتى تتكشف له اخبولة النجوم .. ستخرج الى العراء لتعمل في الحقول وستثيرها رائحة عرق الرجال ، وسيبقى الثوب معلقاً في زاوية البيت . سينام النواطير بعين وستبقى العناقيد عالية . وستعرف الثعالب ان جمال الأشياء ليس في النظر اليها فحسب » .

وعندما رفعت رأسها كانت عيناها نديتين . ونظرت اليه المرة الأخيرة فقاست منكبيه وبدا له انها استقرتا على قامة وهمية اطول ومنكبين اكثر عرضاً . وانحنت بعدئذ على مغزلها وراحت تطور الثوب المنسوج حسب قياسها الخيالي الجديد . ومع ذلك استطاع ان يميز في عينيها صورة رجل قدّر أنه الملاح التائه .

وحينما ترك القرية كانت الشمس في انتظاره. فأطرق رأسه تحاشياً لاذاها . وكان هذا الاطراق يتيح له وضعاً افضل كي يسير

مع افكاره . « كم قوساً رسمت الشمس فوقك وانت تدور في الارض ؟! »

واحس برطوبة تحت عينيه فمسحها بيده .

« ولكن دعنا من الرثاء .. اننا نواجه مشكلة الشمس الآن مامسافة القرية التالية ؟»

وبدا على حقيقته في العراء . غريباً عارياً بلا سند . منحنياً نوعاً كأنه يتقصص أثر كنز . كانا وحيدين هو والشمس . اماهو فقد كان الاعياء واضحاً عليه وان كان بعيداً عن البؤس . واما الشمس فقد لاحت انها تعرف طريقها . ولم يكن يبدو عليها انها ستحيد عنه . وكانت ترمقه بشواظ من لهب في الوقت الذي اخذت فيه ذرى القرية التالية ترتعش في خياله متوهجة كالسراب .

"أرضُ الرّجَال"

« ستذهب اليهم طالما انك تقدر على حمل جسمك وفي هذه الحالة لاحبذ الفلقة». انا من ناحيتي لااحب الفلقة على الاطلاق. ومن المؤكد انها ليست أروع اعمالهم ، اني اوثر اي ضرب آخر . ليس لانها تكسو القدمين حذاء مميكا ، ثقيلا كنعلي الغواص ؟! فبعد مدة من الزمن تستوي كل الالوان تماماً كالتخمة. ولايفضل أحدهما الآخر . ان أي واحد منها يمسي ليس اكثر اذى ولاأقل . وان وخزة دبوس في أي مكان من عالم الجسم البشري ، تكهرب هذا العالم كله وتدوي فيه .

مالنا الآن « في الحلزون اليساري إنحن عندالدرجةالخامسة والثلاثين » . في الحلزون اليساري . نعم.. نعم .

واحدة .. اثنتان . « إنحن . انك لن تجد من يسندك اذا سقطت .. ان الظلمة هناك لاتصدق » . اي شيء في هذا العالم يصدق ؟؟.

ثلاث . « حسناً سأعد حتى ثلاث . اذا لم تعترف ؟! » . طبعاً اني ادرك أبعاد هذا الوعد . ادري ان اللعبة ستبدأ . لعبة العصفور والنسر « اذا اعطيتهم طرف الخيط افرغوا البكرة شئت او لم تشأ » . ترى ماذا حدث له ؟؟ أين حملوه ؟!

اربع « سيعترف .. انه رفيق قديم لكنه سلك الطريق الخاطئة » . من قال اني سأعترف ؟؟ .. انني لااملك هذا الحق . هكذا تعلمنا .. اليس كذلك ؟ .. انت وأنا .. كلانا .. وكل الذين مشوا في الطريق. لاأملك منه اكثر من ملكيتي حق اختيار اللعبة . متى كنا نملك حق الاختيار ؟!.

ومع ذلك فقد قبلنا ممارسة اللعبة مرغمين رغم معرفتنا بأصولها . لقد نسينا في دوراننا الدائب ان احصنتنا لم تعد من الخشب ، وان جيوبنا ليست ملأى بالنجوم .

لقد اسكرنا رعد الفرسان ووقع سنابك الخيل اللاهب .. لاشك انك تحلم . مالك والفرسان ؟! .. لم يعد في الدنيا كلها فارس واحد . فكّر بما ينبغي عليك ان تصنع .. بما هو آت بعد قليل ، ولاتسقط من حسابك الدرجة الخامسة والثلاثين .

حسناً . حسناً . سبع .. ثماني . تسع . اذا خلت الدنيا من الفرسان ، فقدت الصحراء أعظم اسرارها . . هل يعني ذلك انحسار الصحراء وطغيان البحر ؟! .. لامعنى للصحراء دون فارس ملفع وجواد كريم .

لماذا ذكرتني بالبحر ؟.. أنا لااريد ان احلم . ان البحر يحمل الدمع الى العين .. الهدير ؟؟ . لكن . ليست المفاضلة دائماً خاسرة . اني انشد البحر .. ان الهدير يخيف الاطفال .. انا ايضاً

كنت طفلا . وكان عندي صدفة الصقها بأذني . ولكن ذلك كان منذ زمن سحيق .. انك تذهب بعيـــداً .. لكن البحر أرحب صدرا . وان كان يضيق بقذاراتنا . ولفاظات الشاطىء لا تخطئها العين . .

انك تكثر اليوم من ترداد العين ؟؟ طب نفسا . فقد لبست دوري تماما : أمس الاول كنت « رفيقاً ضالا » . والبارحة «ماهو تنظيمك ؟؟ خائن » مع مداعبة اظافر . هكذا ؟؟ كل يوم خسارة جديدة . تماماً كالامير السعيد[1]. كل يوم عري جديـد . ولكن قلبه امتنع عن الانصهار .

« لست احب قلع الاظافر ، مع انه ليس أروع اعمالهم . ومع انه اول خطوة على عتبة الفن » . ان اللوحة مدرجة حافلة . ولايزال الباب مفتوحاً لابداع جديد . وان كان عنصر البساطة يتناقص كلما امعنت اليد الخلاقة صعوداً في اللوحة .

« كنت اوثر اشد اعمالهم الفنية تعقيداً مع انها أجدى .. او تدري لماذا ؟! انها تبعد المسافة بيني وبينهم . تبعدها لدرجة اقنع بها نفسي بأن مااللقاه من صنع الآلة . كان ذلك يخفف عني بعض الشيء .

---

(١) الامـــير السعيد : قصة قصيرة للكاتب الايرلندي اوسكار وايلد .

هاأنت قد شططت ثانية . أين وصلت من السلم ؟ ! . .
لتذهب السلم الى الجحيم . تبدو لي انها ليست حقيقية . خمس عشرة . .
ست عشرة .

والكنها ستصل بك الى الحقيقة . قلب الحقيقـــة . حيث اللوحة ، ومن حولها يدور الراقصون .

ولكن لاحقيقة حيث يلعب الراقصون ؟! وهذه حقيقة اخرى . احتفظ بالجانب الذي يعدّ . سبع عشرة . .

لماذا لاتشغل نفسك بالاغنية التي بدأناها معـــا امس . .
ولكن أي الاغاني ؟! لقد صنعنا منها الكثير حتى الآن . أتلك التي تقول :

واذا نفخ في البوق
تخفف المثقلون من احمالهم
وخلفوا وراءهم حزنهم الأرضي
لان عروقهم لم تعد تنبض
بدم بشري

لو كان صوتي جميلاً غنيتها للعالمين .. ولكن ماذا يجدي ذلك هنا ؟؟

المغنون يفنون والاغاني تبقى .. لاعيب في غنائك . وافضل الاغاني ابقاها . واصدقها ماخرج من حنجرة لاتجيد الغناء ،

وحيث لايكون التوقع .. وعندما تزدرد المرارة اليامة .. وعندما ينشر طير الشؤم جناحيه .

هانحن اولاء نعود الى الرمز ؟! نعود الى الرمز ؟! نعم أوليس عالم الخيال اقصى درجات الفرح الانساني ؟ اما الرمز فأعلى درجات الفن ، ولا يرقى اليه الا المصطفون . وهذه هي مشكلة الثوار الحقيقيين . « لاتلبس دور البطل .. هات ماعندك .. قل اسماءهم . ان العناد لايجدي » .

اخفقي ياطيور الأسى .. وازحفي ياجيوش الحزن . هي ذي انفاس التتار قد هبت ريحها اللافحة . ونشرت ألويتهاالسوداء . « لقد تحملت كل شيء وتقبلته كشرط من شرائط اللعبة . اما العناد فليس لي .. اني ارفضه .. ببساطة شاركت وببساطة يترك المد آثاره . ولا يحتمل العالم صليباً آخر » :

هكذا النعاج تمضي نحو مصيرها المحتوم . فقط لوكانت ترفع رأسها .

« في الحلزون اليساري . كان يبدو لي انني فقدت صلتي بالأرض ، وانني اصعد في سماء بلا نجوم . وكان احساسي يزداد طرداً كلما أوغلت .. اما اذا أردت ان يتكامل هذا الشعور لديك فاغلق انفك . وليس هذا كل شيء . ان الدرج المتآكل لايلبث ان يصفعك » .

هكذا اذن ؟! ان السماء حبلى بالنزلاء ولن يضير ذلك في

شيء . وسيجد المرء دائماً متسعاً له فيها . أما ان يكون دربها بلا روائح عطنة ، فإني أشك في وجودها شكي في سماء بلا نجوم . واما الدرج المتآكل فيبدد وحشة الغريب .

مارأيك ان تختبر الجانب الذي يعد ؟؟..

خمس وعشرون ؟. مازال امامنا بعض الوقت للتفكير . واني اقدّر هذا الذي يحسن العدّ فيك

« ولكن رغم ذلك .. رغم كل ذلك لن تلبث بعد فترة ان تحرم متعة هذه النزهة . سيأتون اليك مادمت لاتستطيع الذهاب اليهم .. سيمرضك الانتظار والتوقع . وستبدأ الاشياء هذه المرة بمنطلق غريب . آخذة طابعاً جديداً .

سيختفي مع الأيام ذلك الطعم المر ، ويصبح مذاق الحلزون اكثر استساغة .. ان رحلة الحلزون آخر نعم الانسان . كان يبدو لي وانا مسافر على نحو ما انني ماض اليهم طوعاً .. وانني لاازال املك حق الاحتجاج .

سبع وعشرون . ثمان وعشرون . كم مرة سأقطع هذا الدرج ؟! هل حقاً اننا لانزال في بداية الطريق .

« كانوا يحملون بعض ادواتهم الى هنا ، وانا قابع انتظر مثل كلب طعن في السن . إن أقسى مايعانيه الانسان ان يلقي الضربات كحصة محتومة ، وحيث لايستطيع الوقوف كالرجال . وحيث يفقد العطاء معناه » .

تسع وعشرون . ثلاثون . إحدى وثلاثون . « التعذيب لايهين الثوار ، ولكن الفلقة باتت اداة مزعجة ... لقد صارت تؤنس وحشتي . كم انا خجل ؟! كانت مفتاحاً يصرُّ في خزائن الماضي المغبرة . لقد راحت تحرض ريح الطفولة الشقية . وتنفخ في الأشرعة المطوية . »

اثنتان وثلاثون « اما نقع الأقدام فكان يفتح القلب على ضعف جديد وهجران ليس باليد . ويشقق ضباب النسيان عن امامي البيت الحافلة المسلوبة .. ومباهج اضحت محرمة .

ثلاث وثلاثون ..

لست اريد أن اقضي كالدودة .

اربع وثلاثون . لقد أمضى أياماً صعبة مهينة . هـــل تذكر ؟! اذكر الدرجة الخامسة والثلاثين . واشياء كثيرة أخرى .. اذكر « ان الظلمة كانت رهيبة في رواق الموت » وانها كانت تشتد كلما اقتربت من ملعب الراقصين . و « هناك خيط نور لعله بداية شق أحدثه جرذ » هاهو ذا خيط النور ، لابل رمح النور . رمح النور يسقط من مكان ما لينغرز على عتبة الملعب . حيث تعمق الظلمة الى حد خيالي . وحيث يتهيأ الراقصون للعبة اللحظة المجهولة ؟؟ ايها الأخ ! سأذكرك دائماً . وسأعرف جبينك المميز من بين الملايين .

ان الفلقة لاتليق بالثوار • ولا اريد أن اقضي كالدودة • ولست أحب قلع الأظافر •• ليست المفاضلة خاسرة دائماً • واني أوثر الجلد ، لأنه يعطي كلًا منا صفته الحقيقية ، ولأنه لعبـــة الانسان الأولى •• وإن طمعت في شيء آخر فلتكن ذراعاي منشورتين . لقد بدأت يوماً بنـــاء نصف سقف من القرميد الوردي . وأريد الآن أن أكمل النصف الآخر . وما إخال الأحلام تعيب الرجال .

« ياعالم !؟ ياهوه » . اين سمعت هذا النداء ، هـــذه الصرخة الضائعة ؟!.

ربما في « أرض البشر » . ولكن العنوان الاصلي هو « أرض الرجال » . لماذا نترجم الأشياء بغير اسمائها . اني أوثر أرض الرجال .

ديكنا

بعد أن جمعت اولاد حارتنا، واكتمل عدد الذين سيرحلون الى قرية الضرف ، قلت :

– هيا نمضي اليهم

فقالوا:

– هيا نمضي اليهم

قال ابراهيم وهو ولد شكوك مفلطح الأنف اشعث الشعر:

– لعلنا نسينا الديك !

قلت :

– وكيف ننسى الديك وهو هدف رحلتنا ؟

قال:

– لعلنا نسينا شيئاً آخر غير الديك؟

واتجه الى نديم :

– أرني نقافتك

وأخرج نديم نقافته من جيبه وعرضها قائلا :

– ها هي !

– والحصى ؟

– والحصى أيضاً

ثم بعث في طلب سليمان من مقدمة الجماعة وسأله:

ـ اين مقلاعك ؟

فضرب سليمان جبينه مستدركاً :

ـ آه لقد نسيته في البيت

فانسحبت زاويتا شفتي ابراهيم الى الوراء قليلا ، وقال دون أن يبالغ كثيراً في انتصاره :

ـ هيا واجلبه من البيت

وما كاد سليمان يجري باتجاه البيت حتى هتف وراءه :

ـ لا تنس الخرطوش

فحمل الجميع صوت ابراهيم الضعيف الذي لا يتناسب مطلقاً مع ضخامة حجمه ومركزه كقائد لعمليات القتال بيننا وبين الجماعات الاخرى .

يقول لك : لا تنسى الخرطوش

وكان المقصود بالخرطوش طبعاً هو حجارة المقلاع . وكان الأجدر لو أسميناها في ذلك الحين قنابل . فالحقيقة ان المقلاع عند الصغار في قتالهم بعضهم مع بعض يقوم بدور المدفع عند الكبار .

المهم بعد أن تفقد ابراهيم عدة القتال من مقاليع ونقافات وعصي،أعطيت من ناحيتي اشارة التحرك. كانت الكلمة العليا ترجع لي أخيراً . كنت يومها ابن المختار .

وهكذا اتجهنا نحو قرية الضرف التي تبعد عن قريتنا مسافة يجتازها المرء في عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، وفي عشر دقائق على مركوب . وطبعاً لم يعتل أي منا في سفرته هذه ظهر مركوب . مع انه كان في استطاعة بعضنا أن يفعل ذلك على دابة من دواب العائلة الخاصة . لكن كنا نخشى اسوأ العواقب .

كان أولاد الضرف قد هزمونا منذ خمسة أيام خلت في مباراات لكرة القدم هزيمة شنيعة ، ولم يكن ذلك يرجع الى ضعف في لاعبينا ، وانما كان بسبب سوء ادارة الحكم . وحينما رفض اولاد الضرف إقامة لعبة الثأر، فكرنا في وسيلة أخرى للانتقام منهم . وجرت مفاوضات لاجراء قتال بين ديك من عندنا وديك من عندهم . كانت الهزيمة قد تركت مرارة في حلوقنا حقاً . وكنا واثقين من انتصار ديكنا .

كان ديكاً فتياً ضخم الحجم ، عالي القائمتين ، طويل العنق، مزين الريش ، ومتوج الرأس بعرف قان جميل .

وكان خلافاً لما هو معروف عن طباع الديكة ينقر كل دجاجة تقترب من الطعام في الوقت الذي يتناول فيه وجبته . بل أكثر من ذلك يتعين على الدجاجات أن تقدم له كل حبة صحيحة طيبة إذا هو غفل عن التقاطها . حتى انه لم يعد يكلف نفسه عناء النبش عن طعامه . وهكذا أخذ يمتلىء شحماً ولحماً طبقة فوق طبقة . ولم تحمل

الدجاجات له أية ضغينة . فهي قد اعتادت سلوكه هذا وكيفت نفسها على اساسه . ان الدجاج يتصرف احياناً كالبشر . أليس هو ديكها وحاميها ؟ إذن فلتتراجع الى الوراء حتى يتم طعامه ، ولتنم في مرتبة أدنى من مرتبته .. ليكن منامه في القن في أعلى مكان .

كانت الدجاجات تنظر الى ديكها فخورة مزهوة عندما يخطر أمامها جميلاً أنيقاً بريشه الملون المذهب والمفضض ، ولا سيما عندما يستيقظ في الأصباح يوقظ النيام بصياح حاد طويل ممطوط ،فيه رجيع قصير مبحوح يعقبه نغمة تنضح دلا ، وتنطق بفخار وتفضل واضح. كان صياحه فعلاً من أجمل صياح كل الديكة التي عرفتها قريتنا خلال السنين الطويلة كما يقول الكبار في القرية . وكان أروع ديك بعد تلك السنين العجاف التي مرت على المنطقة وقصمت ظهور الديكة . ريش ملون جميل ، وصحة موفورة ،وصياح يملأ الأسماع . فمهلاً أولاد الضرف . ها نحن قادمون إليكم . فاحشدوا كل ما في قريتكم من ديكة مقاتلة .

حينما وصلنا الى مشارف الضرف بعثنا رسولاً يطلب الى أبناء القرية ان يخرجوا إلينا بديكهم . كان إبراهيم قد إختار مرجاً أخضر ليكون ميداناً لصراع الديكة . وعندما قال له بعض الرفاق: يجب ان نسحقهم في قلب قريتهم ونجعلهم سخرية الساخرين :

رد عليه إبراهيم بوقار قائد مسؤول عن جماعة ويعرف ماذا ينبغي عليه أن يفعل في مثل هذه الظروف :

من الناحية الشكلية يحقق لنا المرج هـــذا الغرض على أتم وجه . إذ انه قادر على استيعاب جميع ابناء القرية . في حين انه لايوجد داخل القرية ساحة تستطيع أن تحتوي مثل هذا الجمع من الناس . وفوق ذلك فالمرج ملتقى عدة طرق للقرى المجاورة .

ثم أضاف بعد فترة صمت .

– لعلكم فهمتم قصدي .

نظر أولادنا عندئذ بعضهم الى بعض ، وإنبسطت الأسارير وعلت الأبتسامات الوجوه . فقـــد دل إبراهيم على حكمته مرة أخرى كقائد ليس له نظير .ولم تقف عبقرية إبراهيم عند هذا الحد . فقد تابع : انظروا الى هذه الصخور .

ونظرنا باتجاه الصخور دون ان نفهم مغزى قوله في البدء ، لكنه تابع :

– هذه الصخور تقع في طريق العودة الى قريتنا . ولما كان نصرنا محققاً مئة في المئة . فان هذه الصخور تهيء لنا مـكامن جيدة للقتـــال اذا ما راودت أولاد الضرف فكرة التحرش بنا من أجل الانتقام لهزيمة ديكهم . نعم إنهم سيكونون تحت رحمة نقافاتنـــا ومقاليعنا .

ورقص البعض للخطة ، بينما وثب البعض الآخر في الهواء تحمساً . وعلى العموم نالت الفكرة استحسانا ساحقاً بالرغم من تخوف

أصحاب العصي بأن هذه الطريقة لاتحقق لهم إلتحاماً كاملا مع العدو، مما يعطل فعالية أسلحتهم .

على كل حال لم يطل انتظارنا، إذ سرعان ماجاء أولاد الضرف يحملون ديكهم في قفص مغطى ويلحق بهم جمهور من المؤيدين . ووقف بعض العابرين الذين كانوا في طريقهم الى القرى المجاورة، فتشكل من ذلك كله حلقة كبيرة حول المرج .

وبدأت المراهنات بين المتفرجين ، مالبثت ان تصعدت وحمى وطيسها عندما أطلق سراح الديكين . وكانت معظم هذه المراهنات في صف ديكنا . كان لدينا سمعة طيبة حقاً في المنطقة .

وأخذ الديكان يدوران في الحلقة ويتجهان الى الجمهور أحياناً بالصياح . كان لكل منهما طبقته الصوتية ، كما كانت له طريقته الخاصة في الاستعراض . والواقع كان صياح ديكنا أشبه – لو جاز القول – بنصل حاد ينغرز في شيء ما. واذا أجزنا القول مرة أخرى لقلنا إنه ينغرز في القلوب .

وإذا ماأضفنا هذا الصياح القاطع الحاد الى بنيته المشدودة وجرمه الضخم وشكله الجميل لكانت النهاية المحتومة واضحة منذ البدء بلا أدنى إلتباس .

نعم فقد بدا لكل ذي عينين البون الشاسع في اللياقة البدنية بين كل من الديكين . كان ديكنا يرفل في ثوب قشيب من الألوان الرائعة ، ويتفجر حيوية وقوة .

أما ديك أولاد الضرف فكان أسود نحيلا ظاهر جلد العنق عاريه . وكان عرفه صغيراً ذا حمرة قاتمة وله منقار اصفر ، وعينان ناعستان غافيتان . كان بالاجمال ديكاً « عادياً » جداً ، إن لم يكن تافهاً ، بالقياس الى ديكنا .

ودار ديكنا دورتين ونبش ريشه ، وانتصب عرفه واشرأب وتوهج حمرة وغضباً . وتقهقر الديك الآخر امام ديكنا وانكمش . ثم انفلت من ديكنا واخذ يلف حوله .

كان من الجلي ان كلا منهما يروز الآخر ويبحث عن نقاط الضعف في خصمه التي ستكون موضع الهجوم . ويحاول أن يلقي الرعب في قلب عدوه .

قال احد الخصوم:

ـ هذا ديك استعراضات

فقال واحد من الانصار :

ـ الاستعراض ضروري لالقاء الرهبة في قلب ديككم الرعديد

ـ ولكن الرهبة لاتجد طريقها الى قلوب الديكة الحقيقيين

فرد عليه واحد من أولادنا :

ـ وهل تحسبون ديككم ديكا بين الديكة ؟

وقال أحد الخصوم :

ـ العبرة بالفعل

فأجيب من جماعتنا :

ـ العبرة بالنتيجة . والنتيجة واضحة كعين الشمس

ودعم آخر هذا القول:

ـ هل تحسبونها مباراة كرة القدم يا أولاد قرية الضرف . نعم لقد استغللتم بالأمس فساد ادارة الحكم

وتابع ثان :

ـ الآن سوف تدفعون ثمن التباس الأمس وتبصقون انتصاركم المزيف دماً وريشاً

ـ ولكن هل لديكتهم ريش ؟

ـ إذن سوف نفقأ عيون ديكتهم

ـ ولكن عيون ديكتهم غافية نائمة حتى لتبدو بلاعيون

ـ مرحى اذن سوف نمرغ أعراف ديكتهم بالرغام

ـ ولكن ديكتهم بلا اعراف

ـ حسناً لماذا يسمون إذن ديكتهم ديكة ؟..

وقهقه افراد جماعتنا ساخرين . ودبت الحماسة في الجمهور الذي اخذ يتماوج مع مناورات الديكين وحركات المد والجزر التي يقومان بها .

وتقدم ديكنا الى الأمام وقد انتفش ريش عنقه المتطاول حتى اصبح اشبه بلبدة أسد صغير ، وتألقت عيناه واحمرتا . وصفق بجناحيه صفقتين فبان ما يطويه هذان الجناحان الوشيقان من ريش

جميل . وصاح صيحات الحرب المنذرة . كان جميلا أنيقاً في الفن . وكان أجمل بما لا يقاس في ساحات القتال .

وارتفع صوت :

ــ قلت لكم انه ديك استعراضات

وسانده أحد الخصوم ايضاً:

ــ وحق الله هذا الديك لا ينفع . إنه ديك بين دجاجاته فحسب .

والواقع أن ديكنا بعد أن حاصر خصمه الذي ظل يتراجع أمامه ، حتى لقد راودنا الاعتقاد بأنه سيقضي عليه لا محالة ، انقض الديك الاسود على ديكنا وراح يعمل منقاره في رأسه حتى أخذ بعض الريش يتساقط

وهتف نصير :

ــ هذه حلاوة الروح . ان الديك الاسود حفر قبره بنفسه لقد ارادها جدية . فليقطف إذن ثمرة رعونته . لقد كان الديك الضخم يداعبه فحسب . ولو شاء لبطش به .

ــ ولماذا لا يبطش به بحق الله ؟

ــ انتظر وسيفقأ عينيه .

ومد ديكنا عنقه الى الامام وصاح غضباً . نعم لقد جرح فسال دمه . فالويل للديك الاسود وليدفع الثمن إذن غالياً . إن ريش الديكة الأصيلة لا يسقط على الارض هدراً ، ودمها لا يراق جزافاً .

غير ان الديك الأسود سرعان ما عاجل خصمه بعدة نقرات في التويج تماماً . واخذ الدم يسيل . يالله ! إن التهديد لم يعد يجدي معه . فهيا أيها الديك الجميل . هيا واقض عليه . ان اللين لا ينفع مع أمثال هؤلاء الديكة الجربة .

لكن وا أسفاه لقد استمر الديك الأسود في الهجوم واستمر ديكنا في التقهقر . وظـل الريش الملون يتساقط والدم ينزف . وتعرضت مواضع جديدة من ديكنا لنقر مركز . فبعد ان شوه العرف الرشيق انتقل الى العينين ثم الى العنق .

وقال قائل :

ـ ان ديكة الاستعراضات غير ديكة القتال

وقال ثان :

ـ ان الديك المقاتل ينقض كالباشق ، ويدور كالمغزل حول خصمه

وقال ثالث :

ـ ان السمنة افسدت ديككم . نعم ان الترهل خاصة سيئة في الديكة المقاتلة

واضاف الكبار في قرية الضرف :

ـ ليكن كلامكم على قدكم أيها الاولاد . ولا تتحدوا ديكة الآخرين بديكة افسدها العلف الكثير .

وقال آخر :

- يا للخسارة! إنه ديك جميل وصياح لا يشق له غبار، ولكنه غير مقاتل . يالطيف لو اجتمعت فيه ميزات الديك الاسود أو العكس .

وعقب أحدهم :

- يا شيخ لا تعترض على حكمته عز وجل . الكمال لله وحده .

والحقيقة ان منظر ديكنا الجميل تشوه تماماً، وان الصياح العالي الذي كان يطلقه في أول القتال أخذ يخف شيئاً فشيئاً حتى تحول الى قوقأة. لكن الغريب بعد ذلك، أنه عندما أعيد الى القن بكل هيأته المزرية راح يتبختر أمام الدجاجات . والأغرب من ذلك ان هذه الدجاجات تراجعت كعادتها الى الوراء عندما بدأ بتناول وجباته.

الصّقر والسّلحفاة

الجريمة واضحة كعين الشمس ، امرأة مشبوهة ورجل غريب في غرفتها

ـ من ؟

ـ انا

ـ من انت ؟

ـ انا

ودفع الباب . ودفعت الباب . ولكنه كان ذا عضل . وكان الاقوى فانتصر عليها .

طاق . طاق . وركض الى سرواله وغيب فخذيه فيه . ثم نزل في سرواله الاسود ، وود لو ينطمر فيه الى الابد ، ولكنه لم ينطمر الا الى منتصفه ، الى مافوق السرة بقليل . وأما ماعدا ذلك فقد ظل عارياً لايكسوه الا الشعر وخاصة في منطقة الصدر . ولكن الشعر لم يلبث ان تحول الى دبابيس منغرزة في الجسم وغرق الصدر في بحر من العرق .

ـ الأخلاقي [1]

---

(١) الاخلاقي : شرطي الآداب

وجرت مذعورة ودخلت في « روبها » المعرّق . ثم أطل رأسها فذراعها ، فذراعها الاخرى ، وانزلق الفستان حتى الركبتين فبدت كالسلحفاة .

وربض الزمن . تعطل . توقفت الحركة في ملايين ارجله الدقيقة السريعة . وغار زعيق السيارات، ومات بائع فستق العبيد في الشارع ، وذاب وقع اقدام العابرين . عميت النجوم وتلاشت الأصوات وكل نأمة تدل على الحياة . وانزلق الكون في بحر من الظلام والعدم .

كل شيء اصابته العطالة والسكون . كل شيء تحول الى لاشيء ، وفقد أبعاده وسماته ولونه ورائحته وطعمه وقيمته .

ـ هذه المرة علقت

وتحرك الأخلاقي فتقدم الى وسط الغرفة . ووقف هناك عملاقا متسلطا واخذ جناحاه يكبران ويكبران حتى ملآ جو المكان، ثم امتدا فشملا العالم الخارجي . بينما كانت الاشياء ، بما فيها الرجل العاري حتى منتصفه والمرأة السلحفاة ، تزداد صغرا . وأحس الرجل والمرأة كلاهما أن يد الأخلاقي الفولاذية قد امتدت ـ دون ان تمتد فعلاً إليهما ـ وأنها قد أطبقت على عنقيهما .

وقال الرجل على الفور :

ـ انها الفضيحة

وقالت المرأة على الفور :

ـ أنها النهاية !

ورأى الرجل في الحال بعيني فكره جميع المخازن في سوق التجار في الصباح مفتوحة الامخزنه . اما المرأة فقد استلقت على منضدة طويلة مكسوة بجلد ابيض وقد خرشت انفها رائحة كيماوية حادة ، بينما الطبيب الذي تهيأ للكشف عنها انشغل فجأة في الغرفة المجاورة ، فظلت هكذا معلقة تتأرجح في الهواء يسترها ولا يسترها حتى منتصفها ملاءة بيضاء . وقد بقيت كذلك زمنا قالت عنه فيما بعد أنه يعادل عمرها كله . واحست فجأة بقشعريرة تسري في جسمها فانتفضت كأنما لسعتها افعى وقررت أن تقاوم ولكن كيف ؟ وانحسرت الى قوقعتها .

وشمل الاخلاقي المكان من عل بنظره . السرير المشوش الكراسي ، الصوفا، الطاولة التي عليها زجاجة عرق لم تنقص كثيرا، وثلاثة كؤوس وفواكه واعقاب سجاير وعيدان كبريت محترقة ، وصورة معلقة بلا إطار لزعيم، والستائر والمرأة المرقطة والرجل ذو السروال ، الذي بدا كوتد دق حتى منتصفه ومايزال ينتظر دق النصف الآخر . فأحنى رأسه وراح يتشاغل بالنظر الى الارض .. قال الاخلاقي :

ـ سكر وزنا

وسأل بغلظة وبلهجة قاطعة :

ـ لمن الكأس الثالثة ؟

فقالت السلحفاة من داخل قوقعتها وكأنها تتكلم من عالم آخر أو هذا ما احست به على الأقل . :

ـ لأخي

فقال بغلظة وبلهجة قاطعة

ـ كذابة

وقال لنفسه « اعرف ذلك . كان الزوج من قبل . والآن الاخ . كان الزوج يقوم بدور الستارة وتدبير الامور من قبل . والآن الأخ . اي صنف من البشر هؤلاء ؟ ولكن ماوجه الغرابة في ذلك ؟ كنت اعرف اما كانت تقوم بدور الوسيط لابنتها »

واغتنم الرجل فرصة انشغال الاخلاقي مع المرأة ، فمد يده الى قميصه . وقالت المرأة :

ـ لأخي وحق كتاب الله

وانتبه الاخلاقي الى حركة الرجل فتوجه اليه قائلاً بغلظة وبلهجة قاطعة :

ـ دع القميص مكانه . لاأحد يلمس شيئا .

ثم تابع ببطء وكأنه يعلك كل كلمة يقولهامنتقماً لاستغلاله:

ـ اما تستحي يارجل ؟ فمنذ قليل كنت تنام مع هذه المرأة . والآن تقوم بدور اللص

وقال الرجل بآلية ،ولعله حاول التنصل :

ـ انا ؟

وسارع الاخلاقي يردد قول الرجل ساخرا :

ـ انا ؟ لا أنا ... وماذا كنت تفعل اذن بحق الله ؟

وبسط كفا على كف وقال بلهجة ذات مغزى :

ـ هل تريد أن اتصور انك كنت تطحن برغلا ؟ ..

ثم للمرأة باحتقار كاد يسحقها :

ـ وأنت لاتحلفي بالكتب السماوية .. انهـــا بريئة منك . لوكانت الشرائع السماوية تطبق لكنت الآن ترجمين في ساحة عامة .

ونبست شفتاها « ياساتر يالله » .

وفتح الطبيب الباب واقترب منها بنظارتيه .

وحجبت عينيها بيدها ثم مررتها على جبينها فحملت بعض العرق الذي تفصد منه . وقالت ، وهي تنظر في كفها الذي يلتمع تحت النور :

ـ وماذا فعلت حتى ارجم ؟ ...

ـ ماذا فعلت ؟ لاشيء .. هل تريدين ان اقول انك كنت تطحنين ايضا ؟ ام انك كنت تمتحين الماء وانت مغمضة العينين مثل بغلة الناعورة .

بغلة الناعورة . وابتلعت التشبيه المهين مرغمة . واحست بالجرح كما لم تحس من قبل، واعتبرت « بغلة الناعورة » أكثر إيلاماً من كل الاهانات التي ألحقها بها . وادركت عدم جدوى هذا النوع

من الدفاع ، هي نفسها غير قانعة به . فما جدوى الانكار .

وثقل جو الغرفة . وضغط شيء ما على الصدور . وبدأ احساس واحد بالضيق والانزعاج بالنسبة اليهم جميعاً . وإن كان هذا الاحساس ليس واحداً في دلالته لدى كل منهم .

ودار الفأر في المصيدة . واقترب من قضبان سجنه . ثم رنا الى حذائه قرب السرير فلاحظ ان إحدى الفردتين تستند الى الاخرى . ومدت السلحفاة رأسها خارج قوقعتها فرأت نفسها تقف على شفير هاوية ، وأن دفعة صغيرة في الاتجاه الآخر ستؤدي بها الى الهلاك . فامتلأ قلبها رعباً . لقد قُبض عليها قبل الآن وأُنذرت . وهاقد استنفدت آخر انذار لها . وضغطت بقدميها كأنما تختبر صلابة الأرض التي تحملها ، أو تريد تثبيتها في النقطة التي هي منها على شفير الهاوية .

وأغمض يوسف عينيه . كان البئر مظلماً عميقاً بلا قرار . وتمتمت : « ياسند المكروبين ويارجاء المضطرين اغثني » .

اما الاخلاقي فقد كان قويا صلباً كعادته مثل كل رجال السلطة السريين ، وإن كان في ملامحه بعض العصبية والنرفزة، كأنما يود الخلاص بأسرع مايمكن من هذه المهمة التي أسندت اليه،والفرار بعيداً عن هذا الجو المقيت .

وخلل الرجل اصابعه في شعره متحيراً بعد ان جدد النظر الى حذائه . وتفكر ماذا يتعين عليه أن يفعل . وعزم ان

يسأل الأخلاقي السماح له بانتعال حذائه لدى أول سانحـــة توحي باللين .

ولاحق الأخلاقي حركة الرجل . ثم ضاقت ساحة ملاحظته فشملت ظاهر كفه، ثم اصبعين من كفه مزينين بخاتمين غير عاديين، احدهما له حجر أسود، والآخر أحمر . ثم انتقل بصره الى يد الرجل الأخرى .

— اسمك ؟

— احمد

ونظر الأخلاقي الى يد المرأة متفكراً . كانت نظرة طويلة متأنية . ثم رفـع نظره الى وجههـا وسأل كأنه تحت تأثير خاص :

— متزوج ؟

واستبشر الرجل خيراً فراوده أمل من نوع ما . ولكنه كان قبل كل شيء متلهفاً لارتداء ثيابه كأن ارتداءه اياها سيخفي فعلته . أو لعله كان يود القيام بأي عمل مهما كان نوعه للخروج من سكونه ليداري انفعاله . وعلق السؤال على رأس لسانه . ورد بلهجة حملها كل تعاسته وانكساره :

— متزوج

وماذا يقول ايضاً حتى يستدر شفقته . واضاف :

— وعندي اولاد ايضاً

ورد الأخلاقي باحتقار :

– وعندك أولاد ايضاً وتتورط في امثـــال هـذه المشكلات ؟..

تورطت ؟! نعم ! كيف ؟ لاأدري . ملعونة هي المرأة . وملعون من يستجيب الى دعوتها . كل هذه الاشجار لك . اما هذه الشجرة فلا تقربها . ولكن كلْ يا آدم . ولكن الله ياحواء . هيا انزلا من جنتي وعيشا في الارض .

وارتد بصر الرجل خائباً . كان البناء راسخاً سامقاً كحصن من الحصون . ورأى الرجل كل صرامة الجهاز الحكومي وهيبته متمثلة في شخص الأخلاقي .. في قامته المشدودة الملفوفة ، ووجهه الجامد ، وملامحه الصمّاء . وادرك ان كل محاولة من قبله للنفوذ الى قلب هذا البناء محكوم عليها بالاخفاق .

اما المرأة فقد توقفت عند نقطة من البناء . لقد تراءى لها انها لمحت شقاً فيه . وعندما اعادت النظر اليه ، صارت أقرب الى اليقين فيما اتجه اليه شكها . واعملت فكرها . كيف تستطيع ان تتأكد من صدق تخمينها .

فقد لاحظت منذ بعض الوقت أن الأخلاقي كان يسترق النظر الى خاتمي أحمد الثمينين . واستطاعت ان تلمح في عينيه شيئاً عبر بسرعة مرة ، ومرة أخرى استطال حتى أنها تكاد ان تلمسه . لكنها احتارت في تفسيره ، وقالت لنفسها : هل يمكن ان تكون

الخواتم عقدة هذا البناء ؟ واستدعت خبرتها كامرأة عرفت رجالاً كثراً . إن لكل رجل نقطة ضعفه . فهل نقطة ضعف هذا الرجل الحديدي هي الذهب؟ ولكن انى لها ان تتأكد في هذه اللحظة . إنها لاتعرفه جيداً . كل ماتعرفه عنه انه اعتقلها مع آخرين مرة أو مرتين، حيث اقتيدت بعد ذلك الى الاخلاقية[1]. كما رافقها عندما بعثوا بها الى الطبيب للكشف .

ونقلت بصرها الى يده . كانتا خاليتين تماماً . ليس هناك خاتم زواج ولا خاتم زينة . فهل هو اعزب أم متزوج ؟ أرجح انه متزوج . ترى هل أضاع خاتمه وهو يضرب شخصاً ؟ أم باعه في ساعة من ساعات الضيق ؟ انه موظف وربما كان راتبه صغيراً . مهما يكن يجب ان تنفذ من هذا الشق، اذا كان هناك شق، وما عليها إلا المحاولة . وتراءى لها أن بصيص النور الذي يتسرب منه هو الشيء الوحيد الذي يضيء في الظلمة المحدقة بها . وحضنت بذرة .

قالت :

ـ هل استعد فأرتدي ثيابي ؟.

وعضت على شفتها . وقالت لنفسها على الفور . لقد تعجلت . لعله كان يجب ان أدعوه اولاً الى قدح من القهوة .

الأخلاقية : مركز شرطة الاداب

لو استطيع التخلص من احمد . ياله من عقبة ! والمشكلة ليست مشكلته على كل حال . وهو في اسوأ احواله لن يتأذى كثيراً . وسيعود الى فتح مخزنه والحيـــاة والشارع مرة اخرى . اما هي فقد قضت على آخر فرصة أعطيت لهـــا وبعدها .. وبعدها ..

وأورقت البذرة فتبرعمت . وغامرت بالقول :

– دعه يذهب . إنه تاجر له سمعته ورب أسرة ومن عائلة محترمة .

– ابوبشير لم تفتح المخزن البارحة ! خير ان شاء الله .

– كنت مريضاً في البيت .

– اين نمت البارحة يارجل ؟ لقـد اخفتني واخفت الأولاد .

– صدمتني سيارة فنقلتني الى المستشفى .. شيء بسيط لم أشأ أن ازعجكم .

– عجيب وهل جهل السبب في تغيبك عن البيت أقـل ازعاجاً للزوجة والأولاد .

لوتجمع كل عبوس الدنيا لما كان اكثر قدرة على التعبير من حركة تمثلت في تقطيب جبـين الأخلاقي . وقال بلهجة صارمة ، ولعله بوغت من سؤالها :

– اخرمي .

ومع ذلك لم تيأس .ولم يوهن من عزمها هذا المظهر الساخط، فليس هنالك من انسان يولي ظهره الى الذهب . والمجانين وحدهم لايعرفون قيمة الاشياء الجميلة . وتابعت بنفس الجرأة ولكن على نحو أكثر استعطافا. لقد فكرت ان القيام بعمل ماعرضة للاخفاق بين ثلاثة . وهو ناجح بين اثنين .

ــ انت رجل كريم وتعرف قيمة الرجال

ورمقه الرجل نصف العاري بنظرة عجلى مستطلعاً أثر هذا الاستعطاف ، ولكنه لم ير مايدل على الاستجابة . وتمنى في دخيلة نفسه ان تواصل رجاءها .

ونبر الاخلاقي

ــ ماشاء الله . متى كانت (الاوادم) من امثالك يلقون إليّ بالاوامر ؟ هذا ليس شغلك .

آه هاقد وصلت الى شيء . شيء ما تحسه اكثر مماتستطيع أن تضع يدها عليه . فلتقف اذن ولتلتقط انفاسها . ولتتحسس ماوصلت اليه . « ماشاء الله » قول ينضح بالسخرية . ولكنه ينضح أيضاً رغبة في مواصلة الحديث . لاشيء يمنعه من ان يقول اخرسي مرة اخرى . ولكنه قال ماشاء الله . وماشاء الله تعني اني اسخر مما تقول ولكني استمع اليك . وكلمة (الاوادم) مثلا، ألم يكن يستطيع ان يستبدلها بكلمة اخرى . حقيرات .ساقطات كلمة أكثر حدة وتليق بالمقام .

ولم تضع الوقت سدى،واتخذت من نقطة الاستناد هـــذه مشجعاً فتابعت :

ــ قلبي يحدثني بأنك ذو أصل . ان ملامح الشهـامة تلوح عليك ، وابن الاصل لايريد الفضيحة للناس المحترمين . احمد شخص خدوم كريم لايرد طالباً . انه ملك في متجره .

ــ ياسلام . ماهذا ؟ اهناك قصة حب ؟

ورنت المرأة الى الرجل ورنا الرجل الى المرأة . كانت نظرة ذات مغزى،ولعلها ارادا ان يدعما قول الاخلاقي كي يستدرجاه الى الاقتناع بأن ثمة علاقة بينهما، أكثر من مجرد اتصال عابر

افرحي واستبشري « يافطوم » اذا لم يكن هذا ليناً وتساهلا فماذا يكون اذن ؟.

ــ فطوم .. فطوم اين كنت يا لعينة ؟...

ــ والله العظيم يا امي دكان بياع اللبن بعيدة

ــ بعيدة اين ؟ هي على رأس الحارة يا بنت

ــ ياسيدي انت ابوها

ــ يا ستي وانت امها . لا ترسليها الى السوق

وتابعت المرأة بنفس التوتر :

ــ اطلق سراحه . واقبض علي

ــ كفى ثرثرة . ان ذلك سيوقعني في مشكلة

هاقد بدأ يتراخى فعلا فلا تتوقفي

ـ اقبض علي . وقل أن الفاعل هرب . تسلل من النافذة او تسلق السطوح . قل أي شيء

ـ ولكن اي شيء ليس هو الحقيقة . والحقيقة هي ان اقوده الى (الاخلاقية) لينال جزاء فعلته

ـ يا سيدي الناس للناس. والسجن لايفرغ اذا نقص زائرا.

وشد الاخلاقي قامته ورمق الرجل بنظرة . نظرة غير محددة قد تعني شيئاً وقد لاتعني اي شيء . واهتز الرجل انفعالا ، والتمعت عيناه حتى لتوحيان بأنها على وشك البكاء ، واقبل الرجل الذي كان ملكاً في متجره على يد الاخلاقي اقبالا صادقاً يريد تقبيلها او الشد عليها امتنانا . ولكن الاخلاقي سحب يده ولم يعلق بشيء.ولم ينتظر احمد اشارة صريحة من الاخلاقي ، بـــل شرع في ارتداء ثيابه، وعجل بالانصراف .

ولمسها الطبيب فأجفلت

الطبيب ـ النتيجة ايجابية

الزوج ـ أنا كنت معها

الاخلاقية ـ يا وحيد القرن

والآن لم يبق غيرهما ، ولا تزال أمامها معركة اخرى . من أين تبدأ ؟! يجب أن لاتجرح احساسه. وهبه رفض. فيا للحرج! قالت تمزق الصمت :

ـ لن أؤخرك أكثر . سأرتدي ثيابي

ودفعت عدداً من اساورها في يدها اليمنى . ودفعت عدداً آخر في يدها اليسرى . والتمعت عينا الاخلاقي للحظة . ولم يفت المرأة أن تلحظ ذلك . ولكن سرعان مـا عادت العينان الى سابق عهدها الاول قاسيتين جامدتين .

ثم قالت وهي تغرز المشط في شعرها المشوش

ـ هل جئت يا رجل واقفاً ؟!

ولكن الاخلاقي ظل على صمته قائماً هناك جداراً من الاسمنت

ـ ما رأيك في قدح من القهوة ؟

ودفعت به برفق الى مقعد

ـ لا تخف لن اضع لك فيه شيئا

ونظر الى المصاغ ولكنه ظل على صمته

ـ قدح قهوة وسيجارة يصفيان الرأس

ومع ذلك فقد ظل صامتاً كأنما يعلك في رأسه فكرة

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ ...

ـ هل تحلي يديها الأساور

ونظر الى الاساور مجدداً

ـ في المرة القادمة تعرفين النهاية

ـ هات يدك اليمنى وابصمي هنا . لا كل يـدك . بكل اصابعها . هات اليسرى

ـ والآن انصرفي . ولكن اعقلي ودبري نفسك .

ثم وهي غير بعيدة عنه

ـ ترى هل تعجبها هذه الاساور ؟

ولمس بيده المصاغ لمساً رقيقاً . ولانت نظرته القاسية

كانت يداها عاطلتين من الزينة عندما رحل، بعد أن احتسى القهوة . ولكن ثمة شيء انبثق في ذهنها فجأة لحظة أطلت من وراء زجاج النافذة . لماذا جاء وحده وكانت العادة أن يأتوا جمـــلة في سيارتهم الخاصة ؟! وبـدأ الشك يتسرب الى رأسها من السهولة التي تمت بها المساومة .

واستعادت تفاصيل الموقف، فأحست أن ما جرى كأماشيء ما كان له ان يجري على هذا النحو. وراعها ان لا تنتبه الى هذه الحقيقة . ولكن هبها فعلت، فماذا عساها تستطيع ان تغير من مجرى الامور.

وتجمهر الناس حولها . ودفعوها في ساحة عامة بعد أن أوثقوا يديها .

ـ والآن اجمعوا الأحجار .

ـ لنضرب الساقطة

ـ اسرعوا

ـ اياكم ان تفلت من ايديكم

ـ هذه تحويشة عمري . كنت اخبئها لأدبر بها نفسي

وتساءلت عما ينبغي عليها ان تفعل . وكان أول شيء خطر لها هو ان تنتقل الى بيت آخر .. الى بلد آخر . واجتاحها حزن عميق، ثم سحقت انفها وجبينها على زجاج النافذة وبكت .

* * *

عَوَدَةُ الأحبَابْ

لم تستقبل محمودا صيحات الاطفال . ولا احد جرى فتعلق بذيل سترته ، أو وضع يده الغضة على العربة الصغيرة ودفع معه . بل شرع يتقدم وحده ليسلك طريقه بين صفين من بيوت الصفيح .

ولم يكن ذلك شأنه دائما . فمنذ خمسة عشر عاماً أو يزيد كان هناك على الدوام طفل أو أكثر يقوم بطقوس الاستقبال له ، يهتف لمجيئه ، أو يمد يده الصغيرة الى جيبه مستفسراً عما يحمل له ، أو يصيبه بكرة القماش ، وآخر يتواثب حوله جذلا كحيوان صغير أليف .

اما الآن فها هو قد اجتاز الفسحة المستطيلة الـــتي تقوم حواليها بيوت الصفيح دون أية مظاهرة أو احتفال . وحالما وصل الى شردقته ، أوقف عربته الصغيرة التي كانت ذات يوم سريراً لطفل ، وبدأ يفرغ حمولتها . ولم تكن حمولتها سوى سلتين عامرتين بكسارة الزجاج .

قال :

ـ يا ستار .

وشال السلة الاولى بعسر من اذنيها الاثنتـين وحملها الى داخل الشردق .

وقال مرة اخرى :

ـ يا معين العواجز ..

ونقل السلة الثانية . ثم عاد فظهر من جديد على العتبة .

كان الوقت مساء . ونقيق الضفادع يشق اجواز الفضاء . اما البيوت فقد خيم عليها صمت يشبه الصمت الذي يعقب عاصفة مرت على قرية ، فكنستها من اهلها كنسا . واحمرت رؤوس شجيرات الصبار خلف بيوت الصفيح بفعل الوهج الذي خلفته الشمس وراءها .

ودار بعينيه في أرجاء المكان ، فأحس بالوحشة والرهبة . كانت الأبواب مشرعة ، ومخلفات العائلات التي رحلت عن الشرادق منتثرة في أرض الساحة : مزق من صحيفة قديمة ، صورة من مجلة ، مكنسة مهترئة ، صحن الومنيوم مسود ، صفحات من كتاب قراءة للصف الأول ، قطعة وشاح احمر ، جرة محطمة على يمين باب بيت سعيد الناطور ، وغير ذلك من الأقذار والنفايات هنا وهناك .

صورة تبعث الأسى وتحرك في النفس الشجن . وقفل عائداً الى الداخل .

ـ لم يبق احد اذن .

نعم لم يبق أحد . لقد رحل الجميع . عائلة إثر عائلة . احمد تفوح أولاً ، ثم نديم طفران وسعيد الناطور وسامي الجرو وابراهيم المشنوق . واليوم .. اليوم بالذات سليم الجاموس وعلي شاهين .. مسبحة انفرطت . بعضهم رحل الى حارة الجمّال وبعضهم الى الرمل ،

وآخرون توغلوا في اتجاه الشمال سعياً وراء البيوت الرخيصة . فما الذي أبقاك انت ؟.

ما الذي أبقاه ؟! سؤال لم يلقه على نفسه ، واذا القاه فقد لايجد جوابا شافياً .

ــ تعال معنا .

قالت له عائلة سليم الجاموس في سهرة الليلة الماضيـــة . و كررت عائلة علي شاهين .

ــ أنت فرد منا سواء بسواء .

كذلك فعلت بقية العائلات قبل أن ترحل كل واحدة بدورها .

ــ مع السلامة . لن اذهب مع أي منكم . في رعاية الله .

ــ خاطرك عم محمود .. تعال لزيارتنا .

ــ ان شاء الله .

كان رجلاً في الخامسة والستين من عمره . قصير القامة . صغير الجسم . في عوده اندفاع الى الامام ابتداء من أسفل البطن . ثم يتقعر العود ثانية عند بداية الصدر ويرتد الى الخلف مع الرأس مما يكسب صاحبه رسم الأوزة وخطوها . لا ولد له ولا زوجة . وربما لا أقارب أيضاً . شيء يشبه نبتة لاتزهر ولا تثمر . خطأ في حدث للطبيعة ، فدفعت به قبل أن يكتمل ، وتلاعبت به الرياح والأنواء حتى قيّض له أن يستقر ظاهر المدينة في شردق من شرادق.

الصفيح السوداء التي تحيط بها بعض الأراضي الزراعية بين سبع عائلات اخرى .

ــ كنا عائلة واحدة .

وأشعل الفانوس فلاحظ أن سواد بلورته لم يمسح . وفكر أن عليه أن يقوم بهذا العمل في المستقبل . هو ذا عبء صغير جديد يضاف الى هموم القلب المستوحش .

وأشعل لفافته من الفانوس ، ثم ثبّت البلورة في قاعدتها ، وتلفت حواليه كأنه يبحث عن شيء فلا يجده .

لم يكن يحس بالجوع ولا بالعطش ، وإنما يحس بشيء يشبه الوهن . لعله سقيم ، ولا رغبة لديه بالتجول خارجاً . اذن فليستلق على فراشه .

ولكن ما أشد ما تهفو نفسه الآن الى فنجان من القهوة . غير أنه لا بن لديه ولا سكر . ولم تكن به حاجة يوماً الى ادخار البن أو السكر . كان يكفيه أن يدخل احد الشرادق حتى تقدم اليه القهوة أو الشاي وربما البابونج أحياناً . حلم لذيذ عاشه خمسة عشر عاماً لم يعلق خلاله مرة طعاما على نار . فطور هنا وعشاء هناك . لكن ليس معنى ذلك أن محمودا كان يعيش عالة على الآخرين . معاذ الله . كانت له خدماته في المقابل .

ــ أنا مشغولة يا محمود وهذا الطفل لايكف عن البكاء .

ويقبل محمود فاذا الطفل ينهنه فيسكت . واذا هو يهش بعد قليل ثم يضحك ويغرق في الضحك .. حقاً لقد كان يتمتع بقدرة عجيبة على إرضاء الأطفال .

وقد تمازحه امرأة فتقول له :

ـ أنت تطبخ ، وانا احمل الماء من عين ام ابراهيم .

فيسارع الى القول وهو يحمل الجرة :

ـ لا أنا آكل وانت تطبخين .

الى غير ذلك من الأشياء الصغيرة التي يعهد اليه بها . ومع ذلك فليس هذا كل ما كان يقوم به . فقد كان له عمله أيضاً .

كان يجمع كسارة الزجاج من حيث اتفق . من البراري .. من زوايا الجدران وعلب القمامة في المدينة ويبيعها في البازار .. عمل صغير لا يدرُّ كثيراً . ولكنه رغم ذلك يكفيه لشراء التبغ وبعض الحلوى للأولاد .. هؤلاء الأولاد الذين كانوا يملؤون الدنيا ضوضاء . فما اكثر اشتياقه اليهم الآن .

قالت له ام احمد :

ـ هيا يا محمود امض معنا . الأولاد يريدون أن تأتي معنا .

كلام حلو على الرأس والعين .. طيب مضى معهم .. ولكن

ماذا بخصوص بقية الأولاد ؟.. كلهم أولاده .. وكلهم أحباء الى قلبه .. فإما أب الكل .. او ليمضي كل في سبيله .

ـ لنمكث بضعة ايام اخرى ..

قال محمود قبل أن تبدأ اول عائلة رحيلها بلحظات ، وقد احس ان جذراً من جذوره يقتلع من الارض .. ينفصل عنه ..

ـ بضعة ايام اخرى فقط .. من يدري ؟.. فربما تراجعت البلدية عن قرارها ..

ـ ولكن البلدية لن تتراجع عن قرارها يا محمود .. الطريق ستمر من الشرادق .. هناك مشروع لتزيين مدخل المدينة . هذا ما جاء في المخطط .

ـ أي مخطط هذا ؟.. هل المخطط مصحف منزل من عند الله.

ـ قلنا للمسؤولين: الى اين نذهب ولا مال لدينا ؟. احرفوا الطريق قليلا الى اليسار نحو الارض المزروعة فتنجو الشرادق من الهدم .. فقط بضعة أمتار.. نعم قد تأكل الطريق شيئاً من كتف الساحة . ولكن الشرادق ستبقى في مكانها .

وقال محمود :

ـ لنشكل وفداً ونذهب الى المحافظ ..

ـ لا فائدة من الوفود .. لقد قال المسؤولون إن الطريق

لاتنحرف يميناً او يساراً الا حسب المخطط.. واذا أراد المخطط للطريق أن تأكل من هنا .. أكلت.. واذا اراد أن تأكل الشرادق.. أكلتها.

وقالت النساء :

ـ ماذا نفعل ؟.. الى اين نذهب بأولادنا ورجالنا يعملون يوماً ويظلون خمسة ايام بدون عمل ؟.

ـ احزموا امتعتكم .. لا فائدة من مراجعة المسؤولين .. ولا بد من الرحيل يا محمود ..

ـ لا بد من الرحيل .. ولكن الى اين ؟.. سنشيع في الطرقات يا مجانين .. ارحلوا انتم ..

لا يهم .. أما أنا فسأذهب الى المحافظ .

ـ انت تذهب الى المحافظ .

ـ سترون ..

عجباً ! ولكن الأمور ليست على هذه الصورة من الصعوبة. وما ايسر ما تسير به الاشياء ! انها اسهل من جميع العقبات التي واجهت محموداً في حياته . انه متفائل يعوم على طوف من الأمل .. بل إنه منشرح الصدر الى حد الفرج .. فلا حواجز ولا حدود اعترضته عندما دخل لمقابلة المحافظ .

ـ ايها المحافظ .. يا سيادة المحافظ

ـ نعم .. من انت ؟..

ـ أنا محمود بن محمد الدباح يا سيدي .

ـ ماذا تريد يا محمود .. يابني .؟

ـ الطريق ستهدم الشرادق .

ـ اي شرادق يابني .. هل يسكنها ناس ؟..

ـ نعم يا سيدي .. عمال يومية .. رزقهم مثل الصياد .. حضرتكم تعرفون مطالب العائلة : صابون .. سكر .. خبز .. كاز .. لباس .. وايجار سكن الشرادق .

ـ مساكين .

ـ الشرادق ليست أحسن مكان للسكن ياسيدي . إنها تدلف في الشتاء . ولكن اعتدنا على السكن فيها . اننا نضع طستاً أو صحناً تحت المكان الذي يقطر منه الماء .

ـ حياة صعبة ..

ـ ولكن الشرادق ستهدم ..

ـ ومن سيهدمها يا محمود يابني ..

ـ البلدية يا سيدي .

ـ البلدية ..؟ لا يصح أن تهدم البلدية الشرادق وتشرد الناس لأجل طريق .. موظفو البلدية ارذال .. سنمنع الهدم .. اطمئن .

والآن ستظن ان ذلك حلماً يا محمود بكل تأكيد .. ستظن ذلك بدون شك. ولكنه حقيقة .. ياله من عمل.. وطبعاً لن يصدق افراد العائلات انك فعلت كل ذلك لأجلهم . ولكن .. ولكن كيف سيعرفون انك اوقفت البلدية عند حدها .. وان عليهم أن يرجعوا للسكن وقد تفرقوا في كل مكان .

ـ هناك أمر آخر يا سيدي لا اعرف كيف ادبره

ـ اي أمر يا محمود ؟..

ـ لقد تركت العائلات الشرادق ومضت تبحث عن امكنة للسكن .. لقد تفرق الافراد في كل مكان .

ـ مساكين .. تعذبوا في نقل الأثاث .

ـ لم يكن هناك اثاث كثير يا سيدي

ـ مهما يكن .. لقد انزعجوا وفي هذا الكفاية .. لا تحمل هماً .. سنعمم عليهم امراً بالعودة الى الشرادق .

وفعلا عادت العائلات بسرعة مدهشة الى الشرادق . عربة وراء عربة .. شيء لايصدق .. ولكنه حدث بشكل حقيقي وملموس .. فهاهو محمود يعانق العائدين ويعانقونه .. والمأخذ الوحيد الذي كدره أنهم عادوا في وقت كان آخذاً فيه طريقة الى الخارج ، وقد اطبق يده على شيء غير عادي عثر عليه بين كسارة الزجاج .. لكنه استطاع في اللحظة التالية الافلات والتسلل بطريقة

عجيبة في الوقت الذي ساد فيه المرج وعمت الفوضى ساحة الشرادق، بسبب لغط العائدين وفرحتهم بالعودة الى بيوتهم والتقائهم من جديد .

ومشى محمود في سوق الصاغة .. كان يلهث من كثرة ما ركض .. وكان العرق يرشح منه .. قال محمود للجوهري وهو لايزال يلهث ..

ـ هل تشتري هذا ؟..

وفتح راحته .. فاتسعت عينا الجوهري اعجابا ودهشة .. كان شيئاً رائعاً غريباً حقاً ، ادهش محمود نفسه في تلك اللحظة ، شيئاً متألقاً كأنه دمعة تجمدت على ذوب النور.. قطعة من الشمس في يوم بهي سقطت فاستقرت في يد محمود .

وقال الجوهري :

ـ يالطيف .. ! أنا لم أر مثل هذه التحفة في حياتي .. ليس معي من المال مايكفي لشراء هذا الشيء العجيب .

قال محمود :

ـ مامعك اذن ؟

ـ مئة الف .. هاهي على الطاولة ..

وصفر محمود من ضخامة المبلغ الموجود امامه .. إنه لم ير مثله في حياته كلها .. ورمى له الجوهرة وحشا جيوبه وعبه بالمال..

وخشخش الورق بين اصابعه من جدته فأسكره .. ثم جرى ..
فهتف به الجوهري :

ـ ولكنك لم تأخذ المئة الف كلهـــا .. تعال وخذ
مالك يامجنون ..

ولكنه ظل يجري حتى وقف امام لبان :
ـ اعطني تنكة حليب .

ـ وما حاجتك الى تنكة حليب ؟ قدح واحد يكفيك ..
ـ بل اعطني تنكة . واحدة لاتكفي كل الاطفال. يجب
ان يشربوا الحليب وليس ابن سامي الجرو المريض فقط .. تصور
كانوا يغارون من ابن الجرو ؟!. لقد تمارضوا كي يشتري لهم
أهلهم الحليب .

ـ ولكن من أين أتيت بكل هذا المال ؟ ! .. انت تجمع الزجاج ؟ .
ـ نعم ..
وتمشي مثل البط ؟
ـ نعم
ـ محمود بن محمد الدباح ؟
ـ نعم
ـ من اين حصلت على هذا المال ؟.

وهز الرجل رأسه في ريبة .. وكان لايزال يهزه حين مضى محمود في طريقه .. ثم حين توقف امام مخزن :

ـ اعطني معطفا لسلمى

ـ ولكن انت لا ولد لك

ـ نعم لاولد لي ولكني سأتزوج بعد قليل . اعطني معطفا لسلمى بنت اخي سعيد الناطور .. انها تقرأ لنا عنتره في الليل .. ولكن المطر ينتظرها على باب المدرسة فيبلل شعرها حالما تخرج والبرد يقرصها . واعطني لها ايضا كتاب تاريخ .. ان كتبها تنقص هذا الكتاب ولا مال لديها لتشتري واحدا ..

ـ وماذا تريد ايضا ؟

ـ دفاتر سجاير

ـ طيب ..

ـ ورق الشام .. هه

ـ طيب ..

ـ وماذا تريد ايضا ؟ .

ـ حذاء من المطاط كي لايتسرب الماء الى رجلي عندما اجمع الزجاج ..

ـ وماذا تريد ايضا ؟..

ـ كيسا للماء الساخن اضعه في فراشي .

ـ عجبا الاتنوي الزواج ؟

ـ بلى ..

ـ لا حاجة بك اذن الى الماء الساخن ..

ـ وماذا تريد ايضاً ؟..

ـ بطيخة كبيرة شق السكين

ـ أنت تحب البطيخ ..

ـ كثيراً .. وطول عمري كنت اشتهي ان آكل بطيخة بكاملها لوحدي

ـ ولكن لا بطيخ عندي .

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأنه لم يأت أوان البطيخ .. ولكن انت مجنون

ـ لماذا ؟

ـ لأني لا أبيع المعاطف ولاالبطيخ .. ولا كتب التاريخ

قال تاريخ ... قال. وقالت له امرأة تنتظره في زاوية من الطريق:

ـ أنت تريد ان تتزوج ؟ .

ـ نعم ..

ـ كيف تريدها ؟..

ـ مكتنزة .. شعرها طويل اسود .. مثل فريدة

ـ أي فريدة يا رجل ؟.

ـ امرأة احمد تفوح ..

ـ ولكنه صديقك .

ـ نعم

ـ وتريد امرأة مثل امرأته .

ـ نعم .

ـ انظروا الخائن .. انه يشتهي امرأة غيره ..

فجرى محمود ، وبرزاللبان من الظلام وصاح :

ـ امسكوا اللص .. لقد سرق أموال المحافظ ..

وقال رجل المعاطف :

ـ انه يريد ان يشتري معطفاً لابنة صديقه .

وجرى الجميع وراءه .. فجرى أكثر .. ودار الى اليمين فدخل في زقاق .. ولكنهم ظلوا يطاردونه . . فجرى اكثر . . فأكثر .. واقتربوا منـه فضاعف من سرعته .. وجرى اكثر . . فأكثر .. فأكثر .. غريب . ولكنه مع كل جريه لايجري كفاية ولا يستطيع ان يبعد المسافة بينه وبينهم . وتساقطت الليرات من جيوبه .. وانزلقت من كمي سرواله وطرف قميصه فجمعها المارة . وتكاثروا وراءه وازدادوا الحاقاًبه .. ولكن ماذا حدث لرجليه؟ . . ماذا يعوقها ؟ . . اقتربوا اكثر . . عجز عن الجري اكثر . حرك رجليك . تخلص مما يعوقها ؟ . ولكن ماذا يعوقها ؟ .. انها خيطان

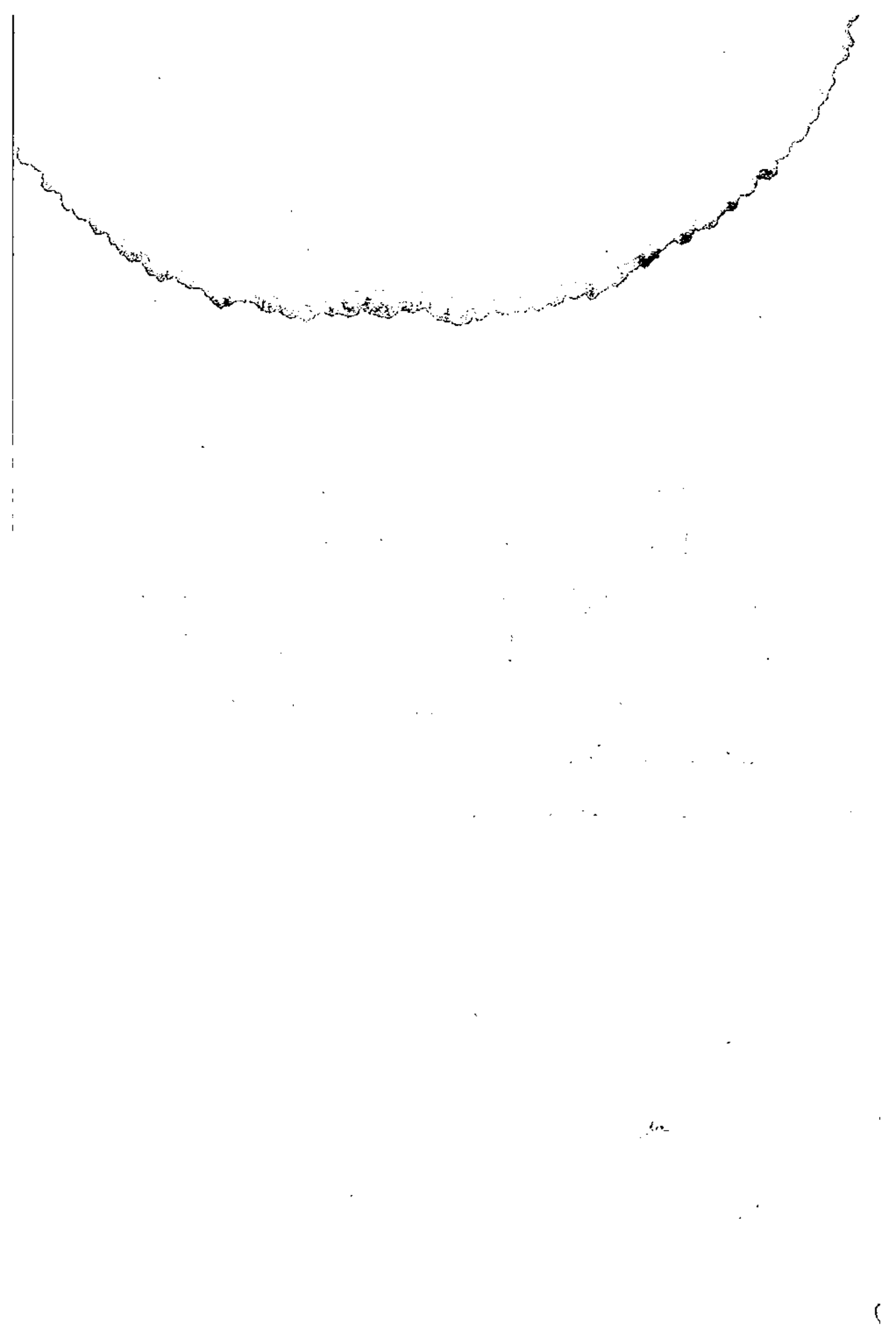
قنب . ولكن لا .. لعلها حبال قنب .. ولكن لا .. ارفس أكثر .. ارفع رجلك أكثر .. الاعداء يقتربون .. الطريق مسدود انت تجري .. انت لاتجري .. اصرخ .. ارفع صوتك اكثر .. رجلاك مقيدتان .. ولكن بماذا ؟ ..

وفتح عينيه ...

– باللحاف طبعاً ..

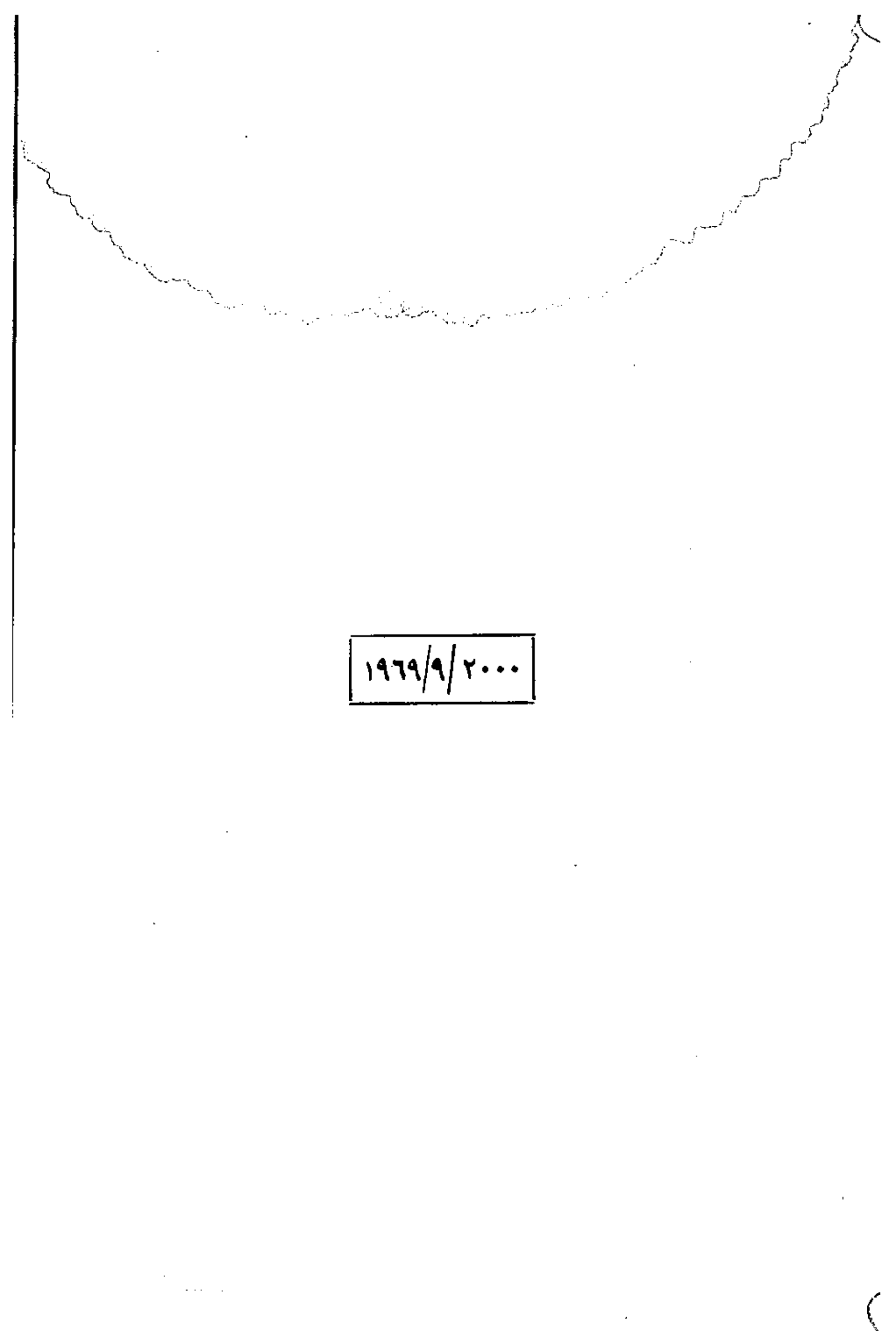
وفتح عينيه اكثر فبهرهما الضوء وتدحرج العرق حبات على وجهه، وتتالى لهاثه المتلاحق فبسمل على عجل وتلا: «لا إله الاهو هو الحي القيوم . لا تأخذه سنة ولانوم . له مافي السموات وما في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه » .

ونهض في اعيـــاء فنقل لولب المصباح الذي التهبت شعلته فخفت النور . ثم انحنى اكثر ونفخ في البلورة فأطفأ الضوء بكامله من قبيل الأمان . وعاد فاستلقى على فراشه ونام من جديد .



الفهرس

* * *


١٩٦٩/٩/٢٠٠٠

مات البنفسج

عبد الله عبد من أبرز القصاصين الشباب في العالم العربي . لفتت قصته « مات البنفسج » الانظار لفتاً قوياً عند نشرها قبل عشر سنوات ، ثم تابع تطوره ونضجه وتألقه في عالم القصة القصيرة التي نال عليها الجوائز الاولى على النطاق العربي .

اسلوبه عذب ، مركز ، عصري ، يستخدم الرمز مع لصوق بالواقع ، وينبض الدفء الانساني في قصصه التي تنبع دلالاتها من قلب الاحداث وتضيف جديداً الى فن القصة الحديثة .



مطابع وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

دمشق ١٩٦٩